تركت نفسى لحسن يأخذنى من ذراعى إلى الحديقة الصغيرة التى على طرف الميدان . . لم أتصور من قبل أنها حديقة يمكن أن يرتادها الناس . صغر حجمها وإزدحام الميدان وقصر أشجارها وسورها المساوى لطول الأشجار يجعلنى دائما أتصورها مجرد بقعة خضراء لتزيين المكان ، خاصة أن النافورة تتوسط الميدان بعيدا عن الحديقة ، وفى الصيف أرى الأطفال الفقراء يأتون من الأزقة القريبة يستحمون ويلهون فى مياه النافورة . لم أرهم أبدا يلعبون فى الحديقة ، وأنا لم أتصور قط حديقة بلا أطفال ، أو نافورة ، أو أشجار عالية . كما أننى اعتدت هذا الميدان بالنهار فلم أعد أعرف من أين تأتى إليه السيارات ، ولا إلى أين تذهب ، رغم أننى أعبره بسيارتى ، ذهابا إلى العمل أو منتصف المدينة ، وإيابا إلى البيت . حتى حين أكون بلا سيارة ، كما يحدث هذه الأيام ، إذ يأخذها ابنى معظم الأوقات ، أمر على الميدان مستقلا التاكسى ، ولا أدرك أننى فى قلبه إلا من ضيق السائق بالزحام . أما بالليل ، فالمصابيح التى تضىء الميدان ، عادة لا تضىء الحديقة ، كما أن خلوه واتساعه يجعلانى أعبره بسرعة . ما معنى الوقوف للفرجة على مكان اعتدت العبور عليه أكثر من عشرين سنة؟ .

قال حسن:

ـ هذه الحديقة افتتحتها السيدة الأولى منذ عامين ـ ثم رفع صوته أكثر وقال ـ لا أحد يجلس هنا. لا أحد يدرك أن هنا حديقة.

أدركت أننى لست وحدى. قلت.

ـ ربما لأن سيارات الميكروباص تقف جوار الحديقة لنقل الناس إلى وسط المدينة.

قال:

ـ فعلا. موقف السيارات لا يجعل أحدا يفكر أنه هنا يمكن الجلوس.. من هنا ينتقل الناس فقط وتتحرك الميكروباصات. هذا تفسير معقول..

لم يكن يعنينى أن يكون التفسير معقولا أو لا، فأنا الليلة مهموم بسبب ما قاله لى الطبيب.

* * *

لم يكن بالحديقة غير عدد قليل من المقاعد، عشرة تقريبا، توزعت كل خمسة منها على ناحية، ولم يكن بداخلها أشجار ملحوظة. فقط أشجار الفيكس القصيرة القريبة من السور الحديدى. إلى جانب السور تمتد مساحة من النجيل تدور معه، الحديقة بيضاوية وطويلة، أمام مساحة النجيل من كل ناحية توجد المقاعد الرخامية المتباعدة. فى

الوسط حوض من الأشجار القصيرة أيضا والزهور. فوق المقاعد ثلاثة أشخاص جالسين شبه نائمين. رآهم حسن فقال..

ـ دائما فى الحدائق الصغيرة المهملة ثلاثة أشخاص جالسين شبه نائمين، أو نائمين. وربما يكونون هم أنفسهم الموجودين هنا الآن..

رأيت على جانب الحديقة امرأة تبيع الشاى كما هو واضح من جلستها ومكانها. تجلس قريبا من عدتها التى لا تزيد عن موقد كيروسين داخل صفيحة أعدت خصيصا لذلك، فأزيل أحد جوانبها الأربعة وصارت الجوانب الثلاثة الباقية تحجب الهواء عن الموقد. جوار الموقد مقعد تجلس عليه المرأة أيضا، ويتسع لاثنين من الرواد كبقية المقاعد، تحت المقعد بضعة أكواب زجاجية وعلب صغيرة بها الشاى والبن والأنيسون والقرفة والحلبة، الأشياء التى سنعرف أنها تقدمها فيما بعد.

ما أن جلسنا على أحد المقاعد، فى الناحية المقابلة للمرأة، ولم يعد يفصلنا عنها غير حوض الزهور، حتى رأيت جوار الحديقة من الخارج امرأة أخرى، أصغر سنا تقف أمام فرش صغير، منضدة عليها مفرش قديم فوقه أنواع من الحلوى الشعبية. فجأة رأيتها تنظر إلى أعلى فى الظلام وترفع يدها بقطعة حلوى وتقول.. «والنعمة دى يا ربنا أنا ما بعت النهاردة غير بجنيه واحد أخده منى أمين الشرطة» قالت ذلك بصوت هادئ بدا لى أن الجميع تعودوا عليه فلم يعلق أحد. قريبا منها تقف الميكروباصات القليلة الآن بالليل، والتى عادة تحجب الحديقة

لكثرتها بالنهار . حول الميكروباصات عدد من السائقين . خمسة أو ستة ، فهناك منهم من يجلس جوار سيارته ولا نراه . كان يمكن أيضا من موقعنا أن نرى بعيدا ، على الرصيف المجاور للنيل ، وفى نقطة تقابل منتصف الميدان تقريبا ، عددا من الجنود فى زيهم الشتوى الأسود يحيطون بسيارة شرطة وقفت فوق الرصيف بالعرض تسده . رأيت المشهد من بعيد . تذكرت أن المارة على الرصيف بالنهار أو الليل يضطرون عند الوصول لهذه السيارة للنزول إلى الشارع قبل العودة إلى الرصيف مرة أخرى ، منهم من يستمر يمشى بالشارع مسافة طويلة ، مثلى أحيانا ، ربما لأن أحدا لا يتصور أن سيارة الشرطة هذه لا تشغل إلا مساحة مترين من الرصيف ، أو ربما يتصورون أن عربات شرطة أخرى سوف تظهر تسد الرصيف من جديد ! الحقيقة أن الرصيف بعدها بقليل يكون مزدحما بالمنتظرين لسيارات تنقلهم أو باصات ، ثم أنه لماذا ينزل الإنسان إلى الشارع ثم يصعد مرة أخرى إلى الرصيف؟ . تذكرت أننى بالنهار أرى دائما ضابطا شابا يجلس بالسيارة البوكس صامتا وعلى عينيه نظارة ريبان غامقة . لابد أنه يجلس الآن أيضا ، لكنى لا استطيع أن أراه من هذه المسافة . لا أذكر فى أى كتاب قرأت ، أن ضباط الشرطة هم أكبر مستهلك لنظارات الريبان فى العالم ، وأنه بفضلهم أستطاع هذا المصنع أن يستمر فى الوجود ، وينافس جميع مصانع النظارات الأخرى!

رآنى حسن أحملق بعيدا ، أو أدرك أننى توقفت بعينى عند عربة البوكس فقال :

ـ هذا كمين شرطة احتل مكانه حديثا فى الميدان . .

قلت :

ـ يبدو لى أنه قديم مضت عليه أكثر من عشر سنوات .

قال ضاحكا :

ـ عشر سنوات بالنسبة لنا يعنى حديثا . .

ابتسمت . قال :

ـ أنا يا أخى لا أحمل بطاقة أبدا ولم يستوقفنى أحد . .

قلت على طريقته . . .

ـ عادة لا يستوقفون كبار السن .

ضحك بدوره ، ثم سكت لحظة وقال :

ـ صحيح ، ماذا يمكن أن يفعل كبار السن ، أو حتى صغار السن . ؟

ضحكنا . أقبلت علينا بائعة الشاى قلت :

ـ كوبين شاى من فضلك . . إحداهما بلا سكر . .

قالت «حاضر» وانصرفت بسرعة . التفت إلى حسن فقلت .

ـ قررت أعمل ريجيم .

هتف حسن وقال :

ـ هذا هو العلاج الحقيقى يا رجل . كيف حقا تحمل كل هذا الشحم على جسمك . ألا تنظر فى المرآه؟ . ألا تذكر كيف كنت جميلا أيام الريجيم؟

ـ أذكرها طبعا . .

ـ كنت مثل شاب فى العشرين، تحب وتسمع الأغانى العاطفية . كنت نشيطا جدا . كيف حقا تركت ذلك الريجيم؟

قلت وقد تأثرت قليلا :

ـ كان الحب هو سبب الريجيم كما تعرف . ضاع الحب انتهى الريجيم . .

هتف حسن بحماسه الذى كثيرا ما يظهر فجأة .

ـ لكن أنت تستطيع أن تحب . أنا أعرفك، لأكثر من عشرين سنة الآن . أنت إذا أردت شيئا فعلته . يا رجل . أنت جبار . أين ذهبت تلك المرأه؟

قلت بلا مبالاه .

ـ لا أعرف .

ـ عجيب . . ألا تقابلها أبدا؟

لم أرد .

ـ ألا تتحدثان بالتليفون؟

ـ تحدثنا مرة أو مرتين ثم انقطعنا .

ـ لكنها على كل حال ظهرت فى الوقت المناسب . بعد وفاة زوجتك

بعام . كانت حالتك تسوء يوما بعد يوم . عبرت بك إلى بر الأمان ثم اختفت . كثر خيرها .

قال ذلك ضاحكا وضحكت بدورى لكن باقتضاب . قال بنفس الحماس .

ـ امرأة تظهر لشخص بعد عشرين سنة أمر نادر جدا . لقد أرسلها الله لتأخذ بيدك، من المؤكد أنك نسيتها الآن .

قلت :

ـ غير الموضوع يا حسن .

* * *

ـ هذه بلا سكر . .

قالت ذلك بائعة الشاى وهى تضع صينية صغيرة عليها كوبا الشاى فوق المقعد بينى وبين حسن . .

سألها حسن بسرعة :

ـ هل أنت هنا من زمان . . ؟

أدركت أنه يريد أن يتفحصها أكثر . ابتسمت . يريد أن يراها على مهل . أجابت . .

ـ أكثر من خمس سنوات .

ـ غريبة!

ـ ما هو الغريب يا أستاذ؟

ـ أنا أجلس فى هذه الحديقة منذ عشر سنوات ولم أرك من قبل، رغم أنك باسم الله ما شاء الله طويلة وجسمك مليان. مالية مركزك بعنى . .

لم يبد على المرأة أنها فهمت أى معنى آخر للكلام. قالت:

ـ لابد أنك تجلس بعيدا عنى . .

حملق فيها حسن لحظة وقال:

ـ ممكن . .

ابتسم. بدا غير مقتنع بكلامها، فالحديقة مهما اتسعت ضيقة، نسى أنه يكذب فلم يسبق له الجلوس فى الحديقة! التفتت المرأة لتعود إلى مكانها، وأنا أتطلع إليه مندهشا. راح حسن يتابعها بعينيه فتابعتها معه، رأيتها تمسك بالصفيحة الصغيرة وتذهب إلى حنفية الحديقة تملأها بالمياه وتعود. قلت مندهشا:

ـ إنها تأتى بالمياه من حنفية الحديقة.

ـ لا تخف. قلت لك إن هذه الحديقة افتتحتها السيدة الأولى منذ عامين. الحدائق التى تفتتحها السيدة الأولى تروى من مياه نظيفة دائما . .

ابتسمت غير قادر على التعليق بشىء . . استطرد:

ـ أنا رأيت الافتتاح. كان جوارها مقهى أزالوه وألحقوا مكانه بالحديقة . . هل تذكر ذلك المقهى . . ؟

❋ ❋ ❋

دخلت الحديقة فتاة صغيرة بيضاء كما يبدو من وجهها. فستانها الأسود الطويل رغم اتساعه يبرز تكوينات جسدها. لها عنق عال يساعد الناظرين على إدراك جمال وجهها فى الضوء الشحيح. لابد أن حسن كان يراها أيضا إذ هتف . .

ـ انظر. انظر. يا إلهى. حتى فى الظلام يظهر جمال النسوان.

لقد دخلت الفتاة إلى الحديقة فى اللحظة التى ترددت أن أجيب فيها على سؤال حسن عن المقهى. خطفنى وجهها وأراحنى من الإجابة على السؤال. كانت الفتاة قد وصلت إلى موقد الشاى، فانحنت وحملت عدة أكواب واتجهت بها إلى الحنفية لتغسلها. ظهر طفل صغير أسود يجرى حولها لم أره يدخل معها من باب الحديقة. أشار حسن إلى بائعة الشاى فتقدمت. سألها:

ـ هذه أختك؟

ـ بنتى.

هتف مندهشا.

ـ بيضاء هكذا؟

ـ أجل.

ـ رغم أنك سمراء.

ـ أبوها أبيض.

ـ إذن الولد الصغير الأسود هذا ابنك؟

ابتسمت المرأة وقالت.

ـ لا. ابنها.

ـ عجيبة. رغم أنها بيضاء!

ـ أبوه أسود.

ـ أنا اتلخبط..

قال حسن ذلك وضحك. ضحكت أنا أيضا من حماسته الزائدة، وما يبدو من صدق على وجهه وهو يتكلم. قالت المرأة التى بدا أنها تريد أن تتحدث معنا.

ـ أنا خلفت سبعة. أربعة رجال وثلاث بنات. الرجال فيهم الأسمر والأبيض مثل زوجى، والبنات أيضا.

قال حسن متعجبا:

ـ ياه.. سبعة. هكذا تزوجتى صغيرة.

ـ كان عندى ثلاث عشرة سنة.

هتف مندهشا..

ـ ثلاث عشرة.

ـ أجل. كان زوجى يأتى من الشغل يجدنى ألعب الحجلة فى الشارع مع البنات يسحبنى ويضربنى.

نظر حسن إلىّ وقال:

ـ إنت فى حاجة إلى فتاة فى الثالثة عشرة، تحل كل مشاكلك.

سألت المرأة حسن:

ـ لماذا. هل هو عازب؟

ـ زوجته تعبانة شوية.

أجاب حسن فقالت المرأة.

ـ ربنا معاها، ثم حدثتنى، إياك تتجوز عليها.

اكتفيت بهز رأسى نافيا واستمر حسن يتحدث.

ـ إنت عندك كم سنة؟

ـ أكثر من خمسين.

ـ رغم أنك تبدين فى الثلاثين.

كانت المرأة قوية البنيان فعلا، متماسكة الجسم، لولا الفقر ربما بانت عيناها العسليتان أجمل من ذلك، ووجهها المستدير أكثر نضرة.

لمحت رجلا متوسط العمر يقترب من الحديقة، مرّ تحت ضوء عمود الإنارة القريب من الباب، فبان لى وجهه وسيما بحق للحظة، ثم اختفت ملامحه حين وصل إلى مكان المرأة الصغيرة التى تبيع الحلوى. كان الصمت الضارب حولنا بسبب البرد قد جعلنى أنسى ماحولى. فجأة ركل الرجل بائعة الحلوى فى فخذها فتألمت، ثم صفعها فوقعت على الأرض، فعاد وركلها أكثر من مرة، ثم توقف. جلست هى على حجز فوق الأرض جوار الفرش، واضعة رأسها على يدها فى حزن.

لاحظت حسن وهو ينظر إلى بائعة الحلوى. بان متأثرا من جلستها الحزينة.

قال :

ـ يبدو أنه ضربها بقوة.

قلت :

ـ حيوان..

كانت بائعة الشاى قد تركتنا وعادت إلى مكانها، ثم وقفت لحظات ونادت ابنتها التى ابتعدت قليلا خلف ابنها الذى يمرح فى الظلام.

ـ يا سعيدة. لمى العدة خلينا نروح..

أحسست بالنسمة الباردة قد إزدادت كثيرا، سمعت بائعة الحلوى تهتف وهى جالسة مرة أخرى «والنبى يا ربنا تاخد أمين الشرطة اللى عايزنى أنام معاه وتاخد ابن الحرام ده اللى ضربنى كمان» كاد الرجل

يركلها مرة أخرى لكنه تراجع وهتف أحد السائقين «بتدعى ربنا بالليل. يا بنتى بالنهار أحسن» وضحك. لم أفهم أنا ولا حسن ماذا يقصد. كنا متأثرين بكلام المرأة فشملنا الصمت، وهى وقفت وراحت تجمع فرشها فى أكياس مع الرجل الذى ضربها، ثم يحمل هو المنضدة، وينصرفان.

وقفنا لننصرف فعادت إلينا بائعة الشاى. أعطيتها خمسة جنيهات كاملة تاركا الباقى لها فشاعت الفرحة فى وجهها. لاحظت أن الحديقة أيضا خلت من روادها القليلين. عادت البائعة إلى ابنتها التى كانت قد جمعت أشياءها فى كرتونة صغيرة، فبانت لى ابتسامة البنت التى لابد أعلنتها أمها بالمبلغ.

ـ بسمتها جميلة يا أخى فى الظلام..

همس لى حسن الذى بدا مبتهجا بحق ثم قال..

ـ ما رأيك أن نأتى هنا كل يوم. على الأقل كلما خرجنا معا..؟

ـ لا أظن أن هذا مكان مناسب لنا يا حسن.

أجبته فقال:

ـ هى أقرب حديقة إلى بيتك وبيتى. نمشى من البيت إلى هنا ثلاثة أيام فى الأسبوع، ونعود مشيا أيضا. لو فعلنا ذلك لثلاثة أشهر ستشفى تماما..

* * *

تركنا الحديقة رحنا نعبر الميدان شبه الخالى إلا من عربة الشرطة على الرصيف، وعربتين لبائعى فاكهة جلس جوارهما صاحباهما يتلفع كل منهما بعباءة ثقيلة. شردت بذهنى لحظات فيما قاله الطبيب لى، ابتعدت قليلا عن حسن، صعدنا الرصيف معا واقتربنا من بعضنا. تجاوزنا عربة الشرطة.

سألنى حسن:

- متى ستجرى الفحص الذرى..؟

- بعد غد.

- لن يظهر عندك أى شىء. يا رجل لقد مشينا ثلاثة كيلومترات حتى جئنا إلى هنا وسنعود مثلها. إذا ظهر عندك أى شىء لا تستمع إلى الأطباء. الطب البديل يوفر الآن كل سبل العلاج بالتغذية. يارجل هناك الآن علاج بالماء فى الصين واليابان.

أعرف أن حسن مغرم بالدخول إلى المواقع الطبية على الإنترنت، وأن كثيرا مما يقوله صحيح. قلت:

- لقد امتنعت عن التدخين منذ أحسست بالألم فى صدرى، منذ شهر كما تعرف، لكن ضغط الدم لا يزال يداهمنى بالارتفاع.

قال بحماس:

- لا تأخذ أى أدوية للضغط، اشرب كركديه وشراب الدوم وقرفة

مخلوطة بالزنجبيل وكل بصل بقدر ما تستطيع وفصين ثوم كل صباح أو كل مساء ومع الريجيم والمشى سينتهى ارتفاع الضغط.

سكت لحظات. حدثته عن قلقى الحقيقى مما حدث لصديقنا كريم الذى أجرى أخيرا عملية استبدال ثلاثة من شرايين القلب فهتف:

- يا رجل. هذا يجعلك تطمئن. لقد نجحت عملية كريم بامتياز. جراحة القلب فى مصر تقدمت جدا. ثم إننى متأكد من سلامتك. يا رجل قلت لك لقد مشينا ثلاثة كيلو مترات. هل تعبت.؟

- لا.

قال بحماس:

- أنا الذى تعبت.

ضحكنا. كانت النسمة الباردة تصل إلينا نقية من صفحة النيل على اليمين، لكن كانت نسمة ثقيلة كربونية تصل إلينا من الشارع على اليسار رغم قلة السيارات. لابد أنها عوادم السيارات التى مرت بالنهار مازالت مستقرة فى الفضاء، ثقيلة ورازحة فوق الشارع..

فجأة وجدنا زحاما على الرصيف. رجال ونساء وشباب وصبية مكفهرين، وبعضهم بدا حزينا يائسا أيضا، فيهم من يقف غاضبا متحفزا. بدت النساء أكثر قلقا من الرجال، كان على الرصيف الآخر تجمع أقل يقف أمام قسم البوليس، الذى يضىء دائرة واسعة من الأرض أمامه، مصباح ضخم معلق أعلى القسم.

القسم طويل ممتد بانت لى غرفه كثيرة من تكرار النوافذ، لكنها مضيئة، وبانت لى أكثر غرفه مظلمة فى الدور الثانى، قال حسن فجأة:

ـ دعنا نمر بسرعة من هنا.

سحبنى من ذراعى وأسرع وهو يقول:

ـ لا تقف تتكلم مع أحد. لن يقولوا الحقيقة.

تساءلت باسما:

ـ من الذى لن يقول. الشرطة أم الناس؟

أجاب:

ـ الاثنان.

أسرع أكثر فسبقنى فأسرعت خلفه

* * *

ـ ما الذى يجعلك تهرول هكذا. هذا مشهد معتاد أمام القسم خاصة بالليل.

سألته فقال:

ـ لم نعرف لماذا ضرب الرجل بائعة الحلوى.

اندهشت. تذكرت أنه كثيرا ما يسألنى عن أشياء لم أهتم بها أو نسيتها.

عاد يتساءل:

ـ هل هى زوجته؟

ـ ربما.

ـ كان علينا أن نعرف.

سكتنا لحظات، ظللت مندهشا من اهتمامه بالمسألة قلت:

ـ سنعرف فيما بعد. ألم تقل أنت أننا سنأتى كثيرا إلى الحديقة؟

أجاب متسائلا:

ـ هل يمكن أن نرجع الآن؟

هتفت مندهشا:

ـ الآن! لقد انصرف الجميع. رأيتهم أنت أيضا ينصرفون.

ـ صحيح.

قال ذلك فى استسلام. سكتنا قليلا، لم أشأ أقل له إننى أشعر بثقل تحت القصبة الهوائية، وضيق وحرقة، لأنى كنت أعرف أنها ستزول مع التقدم فى المشى، ولا أحب إرباكه، أو إرباك نفسى أكثر، حتى انتهى من الفحص الذرى بعد غد. قال:

ـ أنا يا أخى لا أفهم كيف يضرب رجل زوجته ثم ينام معها بعد ذلك.

قلت :

ـ الغريزة أقوى من الكره . .

أمسك بذراعى . توقفنا وقال فى حماس :

ـ كلامك صحيح ، ويؤكد ما أشعر به من زمان ، إننا حيوانات ، فالرجال يضربون زوجاتهم ثم ينامون معهن . . الفعلان حيوانيان ، وذلك يحدث منذ فجر التاريخ . العجيب أنهم ينجبون أجيالا وراء أجيال . تصور أنت كم امرأة ضربها أجدادك من الرجال حتى أتيت أنت إلى الدنيا فى النهاية ، أو أنا طبعا .

ضحكت ، لكنه استطرد قائلا :

ـ ألم يكن ممكنا أن تأتى أنت وأنا أيضا إلى الدنيا قبل التاريخ ؟ ، فى عصر الأسرة الفرعونية الأولى مثلا ، فكنا رحمنا كل هذه النساء من كل ذلك الضرب . النساء اللاتى ننتسب إليهن طبعا لأننا لن نرحم كل النساء .

ارتبكت من أفكاره التى يمشى بها إلى نهايات لا تنتهى ، فى مثل هذه الحالات أضحك ، وضحكت الآن بقوة فقال :

ـ نحن نعيش حاملين ذنبا فظيعا . بسبب وجودنا أهينت نساء لا حصر لعددهن . .

بان لى متأثرا بحق . إنه لا يمشى مع الأفكار ، بل يكاد يصدقها ، وربما صدقها .

قلت محاولا إخراجه مما ذهب إليه :

ـ حسن يا صديقى . ليس كل الضرب تكرهه النساء ، كما أن الجنس قادر أن ينسى المرأة كل شىء . .

ـ لا . الجنس هو الذى ينساه الإنسان بعد حدوثه . أما الضرب فيظل عالقا بالجسد والروح معا . .

أغلق علىّ كل الطرق . ثم قال :

ـ رجل واحد فقط نجا من هذا الشعور بالذنب ، هو أبونا آدم . لم تكن له أم يضربها أحد . لم يكن له أجداد يضربون جداته .

تنفست الصعداء كما يقال . بدت لى الأزمة وقد انفرجت لكنه عاد يقول :

ـ فعلا أرغب أن أعود إلى الحديقة الآن .

قبل أن أتكلم استطرد :

ـ أنت لا تعرف هؤلاء الناس ، ينصرفون لأى سبب ، فى الأغلب بسبب البوليس ، ثم يعودون .

قلت مبتسما :

ـ ماذا تريد من الحديقة بالضبط يا حسن . ؟

ـ بصراحة . أريد أن أرى سعيدة مرة أخرى ، لها وجه كالبدر .

تصور شعرت بلدونته على البعد، شيء كاللبن أو القشدة. هذه فتاة تصلح أن يكتشفها مخرج سينما، أليس كذلك؟.

ـ ربما.

ـ إذن عليك أن تسعى من أجل ذلك.؟

قلت فى دهشة:

ـ أنا ! وما علاقتى بالسينما؟

ـ أنت إذا أردت شيئا فعلته، ثم أننى كذبت على أمها وقلت لها إن زوجتك تعبانة حتى تثق فيك. لم أقل لها إنك أرمل حتى لا تخاف منك على البنت. اوعد البنت بالشهرة تسلم لك كل شيء، أنا أعرف.

أحسست أنه هو الذى يتمنى لو فعل ذلك، قلت متخابثا:

ـ أنا لا يمكن أن أعدها بشيء.

قال:

ـ افعلها وستجد أنك لست مريضا، ثم أننى أعرف أنك تقابل النساء فى شقتك السرية.

ـ أجل، لكن ليس مع هذا الصنف.

ـ كلهن فى النهاية نساء..

كنت أحس أنه يريد أن يستوثق من مشاعرى ناحية البنت، يريدنى ألا أشاركه فى مشاعره.. قلت اطمئنه:

ـ أنا عندى عشيقة كما تعرف، الطمع فى أخرى سيضيع الاثنين.

ابتسم.. بدا لى فرحان كطفل.

* * *

سألت حسن وقد توقفنا عند نقطة الافتراق :

ـ هل ستذهب غدا إلى العمل؟

أجاب.

ـ لا غدا ولا بعد الغد.

ـ وأنا كذلك

ـ إذن دعنى أذهب معك وأنت تخضع للفحص الذرى.

قلت ممتنا:

ـ لا تتعب نفسك، سأخبرك بالنتيجة، لقد تفاءلت كثيرا بعد خروجنا الليلة.

ألح قائلا.

ـ اتركنى أذهب معك، ستخضع أيضا لرسم القلب بالمجهود، هذا خطر، الدكتور ممكن يسرح وينام ويسيبك تجرى على جهاز الحركة تموت.

ضحكت وقلت.

ـ لا تخف . . لا تسرح أنت بخيالك .

قال مؤكدا :

ـ هذا ليس بخيال ، إذا تعبت توقف ، أثناء الجرى عينك دائما على الدكتور . ستجده ينام ، أنا أعرف ، توقف فورا ، ناس كثيرة ماتت بسبب ذلك . .

ضحكت . صار صدرى يهتز وأنا أحاول أن أكتم الضحك . كنا نقف وحدنا ، خلفنا النيل عريضا صامتا والمبنى العالى الضخم القبيح الذى أقاموه لإحدى الوزارات ، الذى يبدو بالليل مثل قلعة مهجورة ، من فرط الظلام داخله وحوله ، أمامنا الشارع الطويل المظلم العمودى على الكورنيش الذى سأدخل فيه ، ولا أحد حولنا قلت :

ـ يا حسن حرام عليك . . إسكت أرجوك .

قال مبتسما :

ـ خلاص سكت . أستودعك الله .

صافحته . ماكاد يتحرك خطوتين مستمرا على الكورنيش فى اتجاه بيته حتى توقف والتفت يهتف لى :

ـ اسمع . انس كل ما قلته لك عن ضرب النساء ، أردت فقط أن أنعشك ، خصوصا أنك حدثتنى عن صديق قديم لك مات . لا تتذكر يا أخى إلا الأحياء . نصيحة لا تنسها .

عاد يمضى فى طريقه مسرعا . دخلت أنا الشارع الطويل المظلم المفضى إلى بيتى أمشى على مهل . كنت أشعر بالقوة فعلا . بالهواء يجرى فى صدرى ، والبهجة تحيط بى وأنا أتذكر أحاديث حسن ، لكنى كنت مندهشا جدا ، لأنى لم أحدثه قط ، عن صديق قديم لى مات كما يقول . . .

ما الذى حقا يمنعنى أن أتزوج؟ قفز السؤال إلى رأسى لحظة دخولى البيت الفارغ. خمس سنوات الآن وأنا أتردد فى الزواج. ابنتى تزوجت، وابنى يحبنى، لكنه شأن كل الأولاد سيتركنى، وسيحدث ذلك قريبا، فهذا هو عامه الأخير بالجامعة. كما أن زيارات ابنتى لى قليلة مهما كثرت، ولن يرعى شئونى غير امرأة، فما الذى يجعلنى حقا لا أتزوج؟ لا يمكن أن تكون قصة الحب العارضة ونهايتها الفاشلة سببا فى ذلك، فأنا كما قال حسن بالضبط، اعتبرتها جسرا عبر بى من حالة اليأس الشامل بعد وفاة زوجتى، إلى الحياة الطبيعية. اقتنعت مرغماً أن امرأة تقابلها بعد عشرين سنة لا يمكن أن تكون كما كانت، رغم أننى حين قابلتها بعد عام من افتراقنا لم أرها على غير ما كانت منذ عشرين سنة. اختلقت لها كل الأعذار الممكنة. خوفها أن أفيق من الحب الطائش على حقيقة الزمن. خوفها من الزواج بعد أن فشلت حياتها السابقة مع زوجها. و كيف رتبت حياتها لولديها طوال السنوات العشر التى مضت منذ طلاقها. لم آسف على دموعى التى حاولت إخفاءها يوم افترقنا. كانت بذور النهاية كامنة فى قلب القصة. قلت لنفسى ذلك واحتفظت لها بمكان جميل فى روحى وانتهى الأمر. ليس ذلك

إذن، وعن يقين، سبب عدم زواجى، كذلك ليس كونى على مشارف الستين سببا كافيا، فهناك الآن فى البلاد عدد كبير من الأرامل ومن العوانس لم يتوفر فى أى عهد. كثيرات منهن يعلن عن أنفسهن فى بريد الصحف وعلى الإنترنت، ويذهبن بأنفسهن إلى المساجد التى صار جزءا من عملها تزويجهن، وهن يرضين أن يتزوجن حتى على ضرائر، فما بالك بشخص مثلى وحيد وميسور ويسكن فى شقة واسعة تحتاج إلى مبلغ بسيط لتجديدها. حقا لم أقم بتجديدها منذ ماتت زوجتى، وكونها هى التى كانت تفعل ذلك كل صيف، لا يجب أن يمنعنى أن أفعله. لقد فكرت فى البداية، بعد موت زوجتى مباشرة، أن أترك الشقة، ولما اقتربت من تحقيق ذلك أنفقت كل ما معى فى تزويج ابنتى. أجل. هذا هو السبب فى أننى تأخرت فى تجديد الشقة ولا شىء آخر. لكنى أستطيع أن أفعل ذلك الصيف القادم. لابد. أما الآن، فكما يحدث كل ليلة سأتخلص من فكرة الزواج، سأدخل إلى غرفة مكتبى، وأتطلع إلى الكتب التى لم أعد قادرا على قراءتها.. كل ليلة أدرك أننى لم أعد قادرا على القراءة، أو المواظبة عليها، ولا يضايقنى ذلك، لكنى لا أكف عن شراء الكتب، لعلنى أشتريها الآن أكثر من ذى قبل. بالكتب والقراءة تميزت بين زملائى وجيرانى والموظفين الذين أرأسهم فى العمل. الآن يعرف هؤلاء جميعا أشياء كثيرة عن الدنيا من التليفزيون، أكثرهم يمكلون أطباقا هوائية تنقل إليهم كل شىء، بل يتميزون عنى أنهم يتابعون البرامج العلمية والطبية وغرائب المخلوقات. أنا لا أتابع إلا نشرات الأخبار. أظل أتابعها من

محطة فضائية إلى أخرى، بالعربية والإنجليزية، وأحيانا بالفرنسية القليلة التى أعرفها، حتى أكتئب.. أفكر أننى لم أعد قادرا على تحمل كل هذه الكوارث التى تحدث فى العالم من حولى، أقرر أن أنقطع عن متابعة النشرات ثم أعود إليها بعد أن أتخلص من الاكتئاب، الذى عادة يستمر ليومين، بقرصين من حبوب الموتيفال المهدئة. أنام مبكرا وأنهض منشرح البال، يكون حسن قد فعل الشىء نفسه، دائما يخبرنى بذلك، لكنه لا يكتئب بسرعة مثلى، لأنه إلى جانب نشرات الأخبار مولع ببرامج الطب البديل، والعلاج بالنباتات، ويرى أن الآفاق مفتوحة للإنسانية كى تكون أكثر صحة وعافية، وأنه سيأتى يوم يتخلص فيه الناس من الأدوية الكيمائية تماما، بل سيكون العلاج بالتمارين الرياضية، مجرد تمارين لأصابع اليدين والقدمين. تعجبنى أفكار حسن وثقته فى تقدم البشرية، لكنه دائما يختم حديثه متأثرا لأننا لن نعيش حتى نرى ذلك اليوم، وسيتأسف علينا الناس، وعلى الذين ماتو قبل أن يستمتعوا أو يستفيدوا بهذا التقدم، ثم يضحك حسن ويقول «كما نتأسف نحن على الذين عاشوا فى العصر المظلم قبل اكتشاف الكهرباء». نضحك ويستمر حسن فى الكلام. «أجل» هكذا يقول، «يمكن أن تدرك ذلك حين تنقطع الكهرباء. ألا تنقطع عندك؟».

ـ تنقطع.

أجيب فيسأل:

ـ ألا يكون الظلام ثقيلا جدا؟

ـ يكون.

ـ وفى اللحظة التى تنهض فيها لإشعال شمعة ألا تدرك أن الظلام شىء صعب وقاس؟

ـ طبعا، خاصة حين لا أجد الشمعة مكانها.

ـ لذلك أنا لا أصدق كتب التاريخ وما تتحدث فيه من حوادث جرت فى الدنيا. كيف حقا يتم الترتيب لكل هذه الحروب فى الظلام؟

نضحك ويواصل حسن:

ـ صدقنى التاريخ مغشوش

* * *

لابد أن حسن وصل إلى البيت الآن، سيطلبنى فى التليفون بعد قليل يطمئن على وصولى سالما. كل مرة نفترق يطلب كلانا من الآخر أن يفعل ذلك، لكن كالعادة أبدأ أنا فأطلب حسن وأجد الخط مشغولا كما حدث الآن. لقد دخل حسن إلى شبكة الإنتر نت ولن يطلبنى إلا بعد ثلاث ساعات، فى الثانية أو الثالثة صباحا، خاصة أن أحدا منا لن يذهب إلى العمل غدا. فكرة حسن فى الغياب بسيطة جدا، وهى أن الأصل فى العمل أن تتقدم البلاد، إننا نعمل منذ أكثر من ثلاثين سنة ولم تتقدم البلاد. سكان القاهرة مثلا لم يكونوا منذ ثلاثين سنة بهذه الكثرة، ولا بهذا الفقر الواضح فى ملابسهم ولون بشراتهم، ولم يكن

الناس متجهمين على هذا النحو الذى هم عليه الآن، حتى الأطفال كانوا أكثر مرحا. إذن لا معنى للعمل، لذلك يترك حسن الموظفين الذين تحت رئاسته يتغيبون. «ألا تفعل ذلك؟» سألنى مرة، وأدركت حين فكرت أجيبه أننى فى الحقيقة لا أعرف ماإذا كانوا يذهبون إلى العمل أم لا. أنا فى الحقيقة أيضا لا أعرف الذين أرأسهم، كلما حفظت أسماءهم نسيتها، هذا يسبب لى كثيرا من الإحراج، لأن معظمهم من السيدات، وإن تخطئ فى اسم امرأة أمر مخجل، خصوصا إذا كانت عانسا، وعندى فى الإدارة التى أديرها عدد كبير من العوانس، تضع كل منهن فوق مكتبها هرما ورقيا مكتوبا على واجهته الأمامية «love» وأنا لا أعرف لمن يتوجهن بهذا الحب، فالرجال زملاؤهم متزوجون، والشباب رغم أنهم لا أمل لهم فى الزواج لا يفكرون فيهن، ففارق السن بينهم كبير، إذ تخطت كل منهن الأربعين بينما الشباب فى العشرينات من العمر. بالطبع لا يمكن أن تكون كل هذه الأهرامات الورقية من أجلى أنا الوحيد القابل للزواج..

كنت منذ قليل قد خلعت ملابسى وارتديت ملابس النوم، أكلت قليلا من الجبن القريش مع قطعة صغيرة من العيش السن. دخلت تحت غطاء السرير ورحت أتابع التليفزيون.

كنت حريصا أن لا تفوتنى الساعة الحادية عشرة لأتابع فيلم عربة اسمها الرغبة. كثيرا ما لا أنتبه للمواقيت التى تعلن عنها المحطات الفضائية، هى مواقيت تغيظنى لأنها مواقيت بلادها ولندن، إننى أعرف أن الفارق بين توقيت القاهرة وتوقيت ساعة جرينتش ساعتين

دائما فى الشتاء لكن التوقيت الثانى الذى تضعه المحطات، كثيرا ما يتسبب فى إرباكى. بعض المحطات تضع توقيت بلدها وتوقيت مكة، بعض البلاد تضع توقيت بلدها وتوقيت القدس، ولم يعد لدىّ القدرة العقلية لاستيعاب ذلك كله، لكننى منذ أيام أجهز نفسى للفرجة على هذا الفيلم الذى بدأ الآن. رحت أتابع «بلانش دى بوا» وهى حائرة أمامى، محاصرة بكل هذا العنف الذى يمثله زوج أختها، أو كل هذا الجبن الذى يمثله من تصورت أنه حبيبها، محاصرة بماض لم تسئ فيه إلى أحد، صرت مندهشا من أداء جيسيكا لانج التى سبق أن رأيتها فى أفلام عظيمة حقا لكن يلعب فيها الجنس دورا كبيرا. يسمون جيسيكا لانج فى أميركا إلهة الجنس، قيل لها ذلك مرة فقالت إنها لا تحب أن تكون كذلك لأنه لقب يخيف الرجال، فأين هم الرجال اللذين يستطيعون النوم مع إلهة، واستخدمت كلمة «fuck» بدلا من كلمة «sleep»، حاولت أن أقارن بين أداء «جيسيكا لانج» وأداء «فيفيان لى» فى الفيلم القديم جدا، فلم أتذكر إلا مارلون براندو الذى شارك فيفيان لى، وهو يتحدث غاضبا فى الجو الحار الخانق فى البيت، حاولت أن أعقد مقارنة بين أداء جسيكا لانج وأداء آن مارجريت فى الفيلم الذى جاء بعد فيلم فيفيان لى، فلم أتذكر شيئا إلا اسم آن مارجريت، فكرت فى حسن وقلت لعله يرشدنى إلى طريقة طبية نباتية أتذكر بها كل شىء، ابتسمت لأنى سألت حسن عن ذلك مرة، فقال إنه سهل جدا، وأن الإنسان قريبا سيستطيع بطب النباتات أن يتذكر لحظة ميلاده، وحياته فى رحم أمه قبل الميلاد. قلت لكن ذلك سيكون

صعبا يا حسن، فيكفى الإنسان ما يتذكره، قال إن الحق معى، لكن هكذا الإنسان لا يقنع إلا بالمستحيل، ولا يدرك أبدا أن ذلك طريق للهلاك أيضا، ثم ضحك وقال:

ـ تصور أنت المصريين وهم يتذكرون كل شىء، منذ وجودهم فى الأرحام حتى الآن، لابد ستنفجر رءوسهم.

ضحكنا أكثر واستمر هو يقول:

ـ أجل. ستمشى فى الطريق ثم تجد رجلا قد انفجر رأسه أمامك فجأة، أو جوارك، وليس بالضرورة فى الطريق، يمكن فى الأتوبيس، أو فى العمل، أو حتى فى السينما، وربما أثناء النوم، فلا شك أن ذكريات المصريين أكثرها مؤلم، أكثرها كوابيس، إذا أضفت إليها ذكريات الأرحام فستكون الكارثة الحقيقية، لأنه ببساطة لم يكن فى الأرحام إلا ظلام وهلاوس، وفيها لم يكن الجنين يدرك شيئا، فهو لا يسمع إلا حركة واحدة هى حركة الأمعاء، ولا يشعر إلا بجدران وماء، إنه أعمى، لا يرى أعداءه، ومن ثم فالهلاوس مرعبة لأنها ناجمة عن عدو غير مرئى، مباغت فى حركته أو أصواته. الإنسان بصراحة حمار، لأنه فى هذا الجانب من الأبحاث بالذات لن يجلب لنفسه إلا المصاعب، خصوصا حين يتذكر كيف كان شىء ما يدخل إليه ويقذفه بماء غير متوقع، وقد يتصور أنه إنما يدخل ليبصق عليه، وكل يوم تقريبا.

كنت أضحك من هذا التداعى لأفكار حسن، هو بدوره كان يضحك ويواصل الحديث قائلا:

ـ سيكتشف الإنسان أن الذى كان يفعل ذلك وهو جنين هو أبوه، تخيل أنت العداوة التى ستنشأ بين الآباء والأبناء، صحيح أن الأبناء عادة ما يكرهون آباءهم ويرجون الخلاص منهم، قتل الأب يا أخى الذى يحرر طاقة الإنسان، «ألست مثقفا وتعرف ذلك؟». «بلى». قلت ضاحكا، واستطردت، «لكن الأبناء عادة لا يقتلون أباءهم، يتركون ذلك للزمن، أو للحوادث، وغالبا للحكومة». ضحكنا بشدة. قال إن الأبناء حين يكتشفون ما فعله الأباء فيهم وهم أجنة، وكيف كانوا يبصقون عليهم كل يوم، لن يتوانوا عن قتل الآباء بأيديهم، هنا ستحل اللعنة الكبرى على البشرية. يا أخى فيما يبدو أننى ساجن.. ورحنا نضحك..

* * *

ها أنذا أبتسم الآن وأنا أتذكر هذا الحديث الذى فاجأنى به حسن، الحقيقة أن حسن كثيرا ما يفاجئنى بأحاديث جانحة من هذا النوع. نظرت حولى وأدركت فراغ البيت، فابنى لم يأت بعد من الخارج، رغم أننا تجاوزنا منتصف الليل بكثير، وقد يبيت عند أحد أصدقائه، ولا أحد هنا يكلمنى أو أكلمه. هذا هو ما يجعل للزواج أهمية حقيقية. ليس الجنس ولا تكوين أسرة ولا إكمال الدين، هو الكلام بالليل ولا شىء آخر. أجل. فهؤلاء الناس الذين أراهم عبر شاشة التليفزيون كل ليلة لا يصلحون لمؤانستى، رغم أنهم من كل جنس ولون، فهم لا يشعرون أبدا بى. هل عرفت جيسيكالانج مثلا إننى كنت أشاهدها منذ قليل، وإننى ذرفت دمعة وأنا أرى زوج أختها يحضر لها

سيارة المستشفى العقلية لتأخذها بلا رجعة. هل عادت ونظرت إلىّ وقالت لا تحزن، فإنما هذا مجرد فيلم، وهم، وأننى سأعود وأمثل أفلاما أخرى، بل إننى مثلت بعد هذا الفيلم كثيرا، وإننى فى الحقيقة ما زلت أعيش بين الناس، ولم أدخل المستشفى العقلية أبدا،... لم تقل جيسيكا لانج ذلك، لا هى ولا غيرها ممن أراهم كل ليلة، وأعجب بهم أو أبكى من أجلهم.. لكن أين هى تلك المرأة التى أستطيع أن أتزوجها حقا؟ دنيا التى أعاشرها فى شقتى السرية متزوجة، هى أكثر اللاتى عرفتهن محبة لى، إنها تقريبا تفعل كل شىء، تشبعنى تماما، تتصرف كأجنبية تعرف أنه لا حياء فى الجنس. أجنبية؟ هل قلت أجنبية، يا لها من ذكرى تطل علىّ الآن بعد أكثر من ثلاثين سنة. كيف حقا وآتتنى الجرأة أن أمشى بالمرأة الألمانية فى الشوارع بعد أن ينتصف الليل، وفى كل منعطف، وعلى كل عامود نور نتعانق عناقا عميقا، دون أن نبالى لا بالناس المتأخرين، ولا بالشرطة. أين ذهب هذا الزمن؟ إلى أى جب مسحور سقط؟ رأيت الإسكندرية وهى تغلق ملاهيها واحدا وراء الآخر من أجل إقامة مقاه ومسارح أفراح تمنع فيها كل أشكال المتعة، روحية ومادية، لم يبق للشباب فى الإسكندرية إلا لعب الطاولة. رأيت القاهرة وهم يزيلون مقاعدها على الكورنيش، وفى شارع الجبلاية، حتى لا يجلس عليها المحبون. ورأيتها وقد عادت المقاعد إلى الكورنيش، لكن أيدى مجهولة تخرج بالليل لتضع عليها الشحم والفضلات حتى لا يجلس عليها المحبون بالنهار. وأنا لا أستطيع أن أقابل دنيا إلا بسرعة، أقف ألتقطها من الطريق وأسرع بها

إلى الشقة، التى أخذتها فى أبعد مكان. دنيا تصلح درسا لكل النساء، تعرف أنه لا حياء فى الجنس، لكن من يستطيع إعلان هذا الدرس؟، ليس لأن دنيا متزوجة، لكن لا أحد يستطيع إعلان هذا الدرس! دائما لا تنتهى دهشتى من قدرات دنيا على الإمتاع والاستمتاع، أحيانا أسأل نفسى السؤال الخائب، هل تفعل ذلك مع زوجها؟ ولا أسألها أبدا، لأنها تقول عنه أنه بارد وأنانى وبخيل و«بروطة» رغم أنها أكثر من مرة تقول عنه أنه فكه ويحب الدعابة. سألت نفسى أيضا كيف تقول امرأة عن رجل فكه يحب الدعابة أنه بارد و«بروطة» والمرأة عادة تعجب بالرجل الذى يضحكها. أظن أن فرانسوا ساجان قالت مرة إنها تحب الرجال لأنهم يضحكونها، إذا كانت فرانسوا ساجان قالت ذلك فلابد أن النساء جميعا يشتركن معها فى القول.

ماذا يحدث إذن بين دنيا وزوجها لتصل الأمور بينهما إلى هذا الحد من الفتور؟ يمكن أن يزهد الرجل فى الجنس، يمكن أن تزهد المرأة، مع التقدم فى العمر، مع الانشغال فى الحياه، لكن يمكن كسر هذا الزهد بالقنوات الفضائية الجنسية، بشرائط الفيديو، التى عادة يشاهدها الأزواج من هذا النوع، ثم يلعنونها فى اليوم التالى، بعد أن كانوا قد اشتعلوا فى الليلة الفائتة ربما كان زوجها أكبر منها بكثير، لم تقل لى شيئا عن عمره، ولم أسألها، لا يجب أن أسألها أبدا، دنيا لن تزهد فى الجنس، لا الآن ولا غدا، إنها تعبده، وتزهد فى كل شىء آخر، إنها تقيم طقسها الجنسى معى كأنما تتبتل فى معبد إيروسى، معبد فرعونى إلهه ذكر بشرى ضخم تقيم حوله المحارق والمباخر، معبد بدائى لم تصل

إليه بعد أديان السماء. دنيا حالة وحشية، مفتوحة مسامها كلها على الشهوة، تكاد تشرب عرقى بجلدها، ولديها من فنون الحركة أكثر مما لديها من فنون القول. كل مرة تهتف فى همس «أنا كنت ميتة، أنا كنت ميتة»، تهتف من أعماقها البعيدة جدا، وبهمس تتعذب فيه حروف الكلام!. أعاشرها مرة كل أسبوع، فكيف تموت بسرعة هكذا، ولماذا حقا تخلص لى كل هذا الإخلاص فلا تعاشر شخصا آخر خلال الأسبوع حتى لا تموت؟ لابد أنها تحبنى، هى فعلا تحبنى، أنا على يقين من ذلك. لقد أخطأت مرة وحدثتها عن صديقتها فادية، وكيف أنها جميلة، وأننى متأثر لاضطراب حياتها، وإنها ـ فادية ـ يمكن أن تجد طريقة للتخلص من زوجها الشاذ هذا الذى يباشرها عنوة من الخلف. تستطيع أن تتقدم إلى المحكمة بطلب للطلاق، وطبعا يمكن بسهولة أن تثبت ذلك، أجل، فمن المعروف أن الشواذ يسهل التحقق من شذوذهم بالكشف الطبى. زوجها اللوطى جعلها مثل الشواذ تماما، وسيجد الأطباء فى مؤخرتها ما يؤكد ذلك. كنت أتحدث جادا ومخلصا بينما دنيا تنظر إلىّ فى دهشة. قالت إننى مجنون، وأكدت على ذلك. لماذا يا دنيا؟ قالت فى دهشة أكبر، كيف تذهب امرأة إلى القاضى وتطلب ذلك وفى محكمة علنية؟ صحيح. قلت كيف فاتنى ذلك؟ أشعرتنى بالغباء. سألتها هل عندك حل آخر؟ فهتفت ثائرة، لماذا تهتم بفادية كل هذا الاهتمام؟ انقلب الموقف إذن وظهرت غيرتها، غيرة المرأة المحبة التى لا ترضى إلا بتملك الرجل الذى تحبه. قلت بهدوء، أنت التى حدثتينى عن مأساتها، أنا لم أكن أعرف أى شئ عنها من قبل. قالت تريد أن

تخرج من الموضوع، تخرجنا معا، «طيب، لكن خد بالك»، وكما يحدث فى مثل هذه الحالات، تفتح المرأة الساذجة الطريق لعشيقها وهى تتصور أنها أخافته أو أربكته.

لم أخرج إذن من الموضوع. استطعت أن آخذ موعدا مع فادية، بسهولة شديدة صحبتها إلى الشقة السرية، لكنها كانت عنيدة. قالت إنما جاءت معى لأنها تريد أن تجلس قليلا مع شخص فى سن والدها. لم أرتبك. أنا فى سن والدها فعلا، لم أتضايق، كما يتضايق حسن إذا قال له أحد يا والدى، أو يا حاج، قلت لنفسى إنها تفتقد والدها جدا، فلقد كان كما قالت يحنو عليها، ويأخذها فى حضنه ويربت على ظهرها بحنان ويقبل جبهتها ويجفف دموعها. كنت أفعل ذلك فعلا وهى تحدثنى عنه. كانت قد صارت جالسة على ركبتى، وذراعاها حول عنقى، وأنا أضمها إلى صدرى بالحنان الذى تريده، وأمشى بيدى على شعرها الناعم وعلى ظهرها. لم يبد أنها تأثرت جنسيا، لقد أحست بى كوالدها حقا، خفت على نفسى لحظة أن يتحقق فىّ ذلك، وكانت مؤخرتها طرية فوق ركبتى، صدرها الصغير لدنا على صدرى، شعرها الناعم دافئا تحت يدى، لكن جبهتها كانت باردة وأنا أقبلها قبلات جاهدت أن تكون بريئة! شيئا فشيئا استيقظت فىّ الرغبة، خانتنى الغريزة. أحست هى بشىء يستيقظ تحتها فنهضت بسرعة. احمرّ وجهها واشتعل غضبا. «لأ. هكذا لأ.. حاول أن تضبط نفسك، لقد أضعت كل شىء». كان ارتباكى ليس مما حدث، ولكن لأنى لم أعد أعرف أين أنا بالضبط، فى منطقة العطف الأبوى أم فى

التهاب العشق. كنت بدأت أغيب عن المكان ثم رأيت حولى كل شىء، كأنما سقطت الحجرة حولى فجأة لا أعرف من أين. لحظة دقيقة جدا أدركت بعدها مكانى وزمانى، تذكرت ما تريد، وما أريد، قلت إنت محتاجة إلى أب وأنا فى حاجة إلى أنثى، ما رأيك أن نقسم الوقت بين الجنة والنار، جنة الأبوة انتهت منذ اليوم الذى تفجرت فيه فى جسمك رغبات الأنثى، ذلك شىء لا حيلة لك فيه. هزت رأسها نافية، الحقيقة اشمأزت من الكلام. قمت وحاولت احتضانها من الخلف برفق، تركت يدى تعبث بثدييها، تريد أن أفعل لها كل شىء دون أن تراه. لا تريد أن تحمل ذنبا، ليكن، فى النهاية ستستدير. قلت لنفسى، ونزلت بيدىّ إلى بطنها وفخذيها، فصدرت منها بعض آنات خافتة، ثم جفلت بقوة، لم يكن ممكنا التراجع. جذبتها بعنف، حملتها إلى الغرفة الأخرى ووضعتها فوق السرير ملقيا نفسى فوقها، لكنها قاومت بشدة لا تتناسب أبدا مع حجمها الصغير. فى الحقيقة أرهقتنى، ولعنت التدخين الذى تسبب فى كرشة النفس التى لم تعطنى الفرصة للاستمرار، لم أكن أدرى أن الأمر يتعلق بشرايين القلب. قلت لنفسى مكرها، كما حدث لى كثيرا من قبل فى مثل هذه الحالات، لا أحب النوم مع امرأة تقاوم. ربما يفضل غيرى هذا النوع من النساء، ويسعى لهزيمتهن، ويشعر بعد ذلك بالانتصار، لكننى فى الحقيقة لا أحب هذه الطريقة، وكثيرا ما خسرت نساء لهذا السبب، عدم الصبر على تمنعهن الذى يطول أحيانا، لم أفهم أو أقتنع أبدا بالحكمة القائلة، يتمنعن وهن الراغبات، وأتصور أن هذا سبب تأخر

الحركة النسائية فى كل الدنيا، لأنهن إذا أردن أن يتساوين مع الرجال فى الحقوق فعليهن أن لا يتمنعن على الرجال، فالرجال لا يتمنعون عليهن ! كنت أندهش دائما من أن هذه الحكمة الشائعة راسخة حقا فى النساء، أندهش من عدم وجود امرأة تقتحم الرجال كما يقتحم الرجال النساء، حتى وجدت دنيا.

❊ ❊ ❊

فى ندوة سياسية عن حقوق الإنسان، وقفت امرأة متوسطة العمر وصرخت فى السياسى المعارض الكبير الذى أقيمت الندوة من أجله وقالت «لماذا تقيمون هذه الندوات الآن فى كل مكان، ولا يوجد فى بلادنا أساسا إنسان حتى نبحث له عن حقوق ! يا أستاذ يا محترم أنا زوجى بيصبحنى بعلقة ويمسينى بعلقة، وأنا دكتورة ولى وضعى فى المجتمع، وأذهب إلى المستشفى فأجد الموت أسرع إلى المرضى من العلاج، وبالليل تتحول المستشفى إلى مسخرة، الأطباء ينامون والممرضات والتومرجية وأشياء أخرى فظيعة، وكل حين تجد البوليس يرسل إلينا مريضا مقيدا بالحديد، مريضا فى كلبش، شفت حضرتك مريضا فى كلبش إلا فى بلادنا، وأختى المحامية تحكى لى أهوالا عما يحدث فى المحاكم. تصور حضرتك فى طرقة كل محكمة تلاقى واحد واقف، حيوان ابن كلب، حيوان ابن جزمة - وصارت تصرخ جدا - يقف فى يده سلسلة حديد يضرب بها المتهمين الذين يسحبهم عسكرى فى سلسلة ثانية من عربة الترحيلات التى تقف فى الشارع حتى يدخل بهم قاعة المحكمة ليضعهم كالحيوانات فى القفص. فى القفص فقط

يفك الحديد عن أيديهم حتى يرى القاضى أن كل شىء تمام. يا أستاذ «دى بلد وسخة» وهنا بهتت القاعة كلها وخرجت السيدة الطبيبة مسرعة لكنها عند الباب انفجرت فى البكاء..

ظل صوت بكائها لحظات على رءوس الجميع، الذين ما لبثت دهشتهم أن انزاحت عن وجوههم. شيئا فشيئا ابتسم بعضهم، ثم رفع السياسى المعارض رأسه عن المنصة التى كان قد انحنى اليها والطبيبة تصرخ بالكلام، وقبل أن يتكلم كنت أنا قد وقفت لأخرج. رأيت دنيا تنسحب بهدوء، كانت قريبة من الباب فصرت خلفها.

لم أقصد أبدا أن أكلمها، لم أكن أعرفها من قبل. خارج القاعة وجدتها تقف فى الهواء تشعل سيجارة ترتعش فى يدها، ثم سقط منها عود الكبريت على الأرض. كانت علبة الكبريت فارغة فرمتها بعيدا فى غيظ. أخرجت من جيبى ولاعة ثم أشعلت لها السيجارة التى كانت لا تزال ترتعش فى فمها.

كانت السيجارة الثانية وهى معى فى السيارة فى طريقنا إلى الشقة السرية. ارتعشت هذه السيجارة أيضا فى يدها ثم فى فمها ولم تستطع إشعالها.

- هل تعرفين السيدة التى صرخت فى الندوة. ؟

سالتها بهدوء. أجابت.

- لا.

تناولت السيجارة من بين شفتيها وضعتها فى فمى وأشعلتها من ولاعة السيارة ثم أعدتها إليها . . هل كانت هذه الرعشة بسبب ما جرى فى الندوة؟ أم بسبب ذهابها معى بسرعة هكذا؟ لم أشأ أشغل نفسى بالإجابة عن أسئلة قد تفسد كل شيء . للحظة خفت أن يزداد ارتعاشها فى الشقة ولا أصبر عليها فيفسد اللقاء وتفلت من يدى . قررت أن أكون صبورا وباردا أتحمل كل مظاهر تمنعها حتى لو ضربتنى!

كنت فى حاجة إلى امرأة تلك الليلة ، لذلك لم أر شيئا من جمالها ، لا عينيها العسليتين ، ولا شفتيها المكتنزتين ، كنت فى حاجة إلى أى امرأة ، وكانت السيجارة الثالثة ونحن فى الفراش بعد أن انتهينا . أقصد فنينا . أشعلت هى السيجارة بسرعة و بلا ارتعاش ، وأخذت نفسا عميقا ، فشلت أنا فى إشعال سيجارتى ، كانت يداى ترتعشان ، وضعت سيجارتها فى فمى وأشعلت لنفسها سيجارة أخرى . سألتنى مبتسمة . .

ـ مالك . ؟

كان فى صوتها حنان بالغ . لم أجب . أحطها بذراعى وأنا أفكر هل حقا مارست الجنس من قبل؟ هل كان ما مارسته طوال عمرى المنصرم جنسا . . ؟ . وكانت هى تبتسم وتتألق عيناها وهى تشربنى بهما . . .

[٣]

كيف اكتشفنا أن هناك دائما وقتين فى كل وقت؟

أو

لماذا يختل ميزان الأمم بسبب نقص خل التفاح....؟

رأيت حسن من بعيد يقف مع بائع للورد على ناصية الشارع المؤدى إلى الكورنيش. كثيرا عندما نتواعد ينتظرنى حسن فى المكان نفسه. دائما أراه من بعيد، طوله وشعره الأبيض وهندامه المنسق بعناية يجعلونه بارزا بين المنتظرين للباصات أو الميكروباصات، ثم أنه عادة ما يبتعد عنهم قليلا ويتّجه بوجهه ناحيه مقدمى وحين يرانى يلوح بذراعه مبتسما. لم يحدث مرة أن وصلت فى الموعد قبل حسن، رغم أن المسافة من بيتى إلى مكان لقائنا نصف المسافة تقريبا من بيته إلى هناك. أنا أغادر البيت بعد أن يهاتفنى بالتليفون قائلا إنه سيغادر بيته الآن. وفى كل مرة أذهب لأقابله أخاف أن يتأخر علىّ، ولا يتأخر أبدا. لا يتأخر ولا ينتهى خوفى أن يتأخر. فى كل مرة أقول له يا أخى أنت تمشى مع الريح وأنا أمشى على الأرض.. فى هذه المرة أدهشنى وجود بائع للورد، لم أره هنا من قبل. لم يوجد قط غير فاكهانى وحيد، قبله بعدة أمتار كشك صغير لبيع السجائر. الشارع من الناحيتين يحف به سوران عاليان وطويلان، السور الأيمن يحيط مخازن كبيرة لا أعرف لأى شركة تتبع. لم أحاول لأكثر من عشرين سنة أن أعرف. لم أفكر، وهو أيضا السور الأيسر عندما أعود إلى البيت.

السور الأيمن وأنا عائد إلى البيت يحيط بمصنع كبير للأخشاب، وهو السور الأيسر الآن وأنا أذهب أقابل حسن. لم أعد أذكر إلا أن هذا الشارع الواسع يجعله طوله مثل سرداب، فى الحقيقة طول السورين، فعندما ينتهى الشارع يظلان يمشيان معى، خصوصا عندما أعود بالليل.

كنت وأنا أغادر هذا الشارع إلى الكورنيش أفكر دائما أن النيل خلف الكورنيش، لعل هذا ما كان يجعلنى أسرع لأصل إلى البراح الجميل الذى يشيعه النيل فى الروح. منذ سنوات بنيت عمارة ضخمة عالية جدا على النيل فى مواجهة الشارع فصرت أمشى على مهل خائفا أن تكون نهاية الشارع مسدودة، يزداد هذا الشعور بالليل أكثر فالعمارة تبدو وسط الظلام أكثر سوادا. لا أطمئن أبدا لوجود الكورنيش والنيل إلا حين أصل اليهما. أتوقف لأتأكد أن النيل لا يزال يجرى خلف المبنى القبيح..

كان حسن منهمكا فى الحديث مع بائع الورد، من عادته وهو يتحدث واقفا أن ينظر إلى بعيد، كأنما يستدعى الأفكار والكلام، رغم أنه يتكلم بسرعة كثيرا ما تكون مربكة لمن يسمع. اقتربت مبتسما. بدا لى بائع الورد رجلا فى حوالى الأربعين. رأيته أسمر، نحيلا يرتدى نظارة سميكة، على جسمه بلوفر رخيص فوق قميص قديم كما يظهر من ياقته، تحتهما بنطلون جينز ضيق، ويحيط بخصره حزام عريض.. لم تكن هناك أصص كثيرة للورد. كانت حزم الورد أيضا قليلة. ورد بلدى وزنبق وفل وعصفور الجنة وقرنفل وياسمين. كان واضحا أن

الرجل اختار هذا المكان ليجرب فيه حظه، وأنه يحضر الورد من مكان قريب.

* * *

قبل أن ألقى بالتحية باغتنى حسن.

ـ شفت؟ سألته عن شجرة الجهنمية فقال إنه يعرفها لكنه لا يبيعها.

ثم سأل بائع الورد:

ـ هل تبيع الورد فقط؟

أجاب بائع الورد:

ـ أجل. لكنى أعرف كل شىء عن نباتات الزينة، إذا أحببت أحضرت إليك ما تريد.

ـ نباتات ظل؟

ـ وشمس أيضا.

ـ بوتس؟

ـ ومداد ودراسينا ويوكا وأبصال، هذه نباتات ظل يمكن أن تضعها داخل الشقة، إذا أردت نباتات شمس فيمكن أحضر لك جلاديولاس وعرف الديك وصبارات.. كما تشاء.

سكت حسن قليلا ثم قال:

ـ واضح أن عندك معلومات جيدة . .

قال بائع الورد مبتسما .

ـ معلومات وخبرة يا أستاذ .

نظر إلى حسن وقال :

ـ أجمل ناس فى الدنيا بائعوا الورد . .

قلت مبتسما .

ـ طبعا .

نظر حسن إلى بعيد وقال :

ـ غريبة إنك واقف هنا من زمان ولم أرك من قبل .

اندهش بائع الورد وأوشك أن يقول إنه لا يقف هنا إلا اليوم ، هكذا أحسست ، لكن حسن استمر فى الحديث .

ـ أصل أنا وأحمد دائما نتقابل هنا ، نمشى ثلاثة كيلوا مترا حتى الحديقة . هل تعرفها؟

ـ لا . .

ـ لا أحد يعرفها رغم أنها على طرف الميدان . . . شىء غريب .

قال بائع الورد :

ـ أعرفها ، لقد تذكرتها ، صغيرة جدا ، نادرا ما يجلس فيها أحد .

هتف حسن :

ـ هل المسافة ثلاثة كيلو متر فعلا أم أربعة؟

وقبل أن يجيب بائع الورد قال :

ـ المحافظة تقول أربعة ، لكن هى بالكاد ثلاثة .

كنت أنا أحاول أن أكتم ضحكى ، قال بائع الورد مستسلما .

ـ ممكن ، جدا؟

قال حسن ضاحكا :

ـ ثلاثة أربعة ، المهم أننا نمشيها أكثر من مرة كل أسبوع ، ماذا نفعل؟ ناس كبار والمشى علاج .

ثم انتقل إلىّ بالحديث فجأة وسأل :

ـ بالمناسبة . ما أخبار المسح الذرى؟

قبل أن أجيب انتقل بالحديث إلى بائع الورد وهو يشير إلىّ .

ـ عنده مشاكل فى القلب . ليست صعبة . أنا متأكد .

بدا بائع الورد مرتبكا جدا . قلت :

ـ النتيجة إيجابية .

ـ ماذا تقصد؟

سألنى حسن فأجبت :

ـ ضيق بسيط فى الشريان الأيمن الموصل لعضلة القلب، لكن الدكتور نصحنى بعدم إجراء القسطرة الآن.

هتف حسن سعيدا بحق:

ـ شفت. أنا قلت لك.

نظر إلىَّ بائع الورد مشفقا وقال:

ـ إن شاء الله خير. لكن حضرتك لازم تخس شوية.

وعاد حسن يهتف:

ـ شفت لازم تسمع كلام بائع الورد، أى بائع ورد، ولا تنس «أنت ما تأكل» مهم أيضا تعمل تحليل دم لمعرفة حجم الكوليسترول وبالمرة تحليل لوظائف الكلى ووظائف الكبد، أهم من المسح الذرى.

ثم سأل بائع الورد:

ـ أليس كذلك؟

كان بائع الورد قد تعب تقريبا، قال:

ـ الإنسان لازم يطمئن، طبعا.

* * *

كان المساء قد بدأ يتسلل إلى الدنيا، أراه ينزل حولى على مهل، وأشعر بالنسمة وهى تتغير فترق أكثر لحظة بعد لحظة. أرى الناس تقل أعدادها حولنا، وأريد أن أنصرف ليكمل حسن حديثه فى الطريق لكنه

بدا لا يريد أن يتزحزح. ترك حقا بائع الورد ولم يعد يكلمه، لكنه راح يحدثنى بحماس عما قاله له بائع الورد قبل وصولى، كيف أنه يقف هنا خائفا، ففى كل لحظة يتوقع مرور موظف من مصلحة الضرائب، أو إدارة أشغال الطريق أو التأمينات، وأنهم سبب انتقاله من مكان إلى مكان، وهو لذلك لا يستقر فى مكان واحد، وهز حسن رأسه فى أسف وقال «علامات انهيار أى دولة مطاردة بائعى الورد». والرجل الطيب الجميل هذا ـ كما يقول حسن ـ يقف خائفا من أى شخص يقترب منه، لا يتصور أبدا أنه زبون، يضع يده فى جيبه ليستعد لدفع الرشوة المناسبة، لقد خاف من حسن نفسه، ولعله لا يزال خائفا منه. ثم ضحك وسأل بائع الورد..

ـ هل اطمأننت الآن؟

كان بائع الورد قد انصرف عنا وأشعل سيجارته وراح يرش بعض الماء بيده من صفيحة صغيرة على أصص الورد. التفت الينا وقال:

ـ تصدق يا أستاذ، أنا فكرت أبيع بانجو.

ضحكنا، واستطرد بائع الورد:

ـ أبيع بانجو حتى أوفر كل الرشاوى المطلوبة منى.

نظر إلىّ حسن وقال:

ـ وتقول لى شريان تاجى؟ يجب أن تأتى هنا كل يوم تشترى عود ورد وتشمه تتفتح كل الشعيرات الدموية فى صدرك..

ثم انتقل بالحديث لبائع الورد :

ـ اسمع . سوف تأتى إلى بيتى لترتيب الجنينة .

تساءل بائع الورد :

ـ حضرتك عندك جنينة؟

بدأت أنا أكتم ضحكى من جديد ، أحسست بالدهشة تشيع فى وجهى . قال حسن :

ـ عندى سطح .

ـ تريد أن تحوله إلى جنينة؟

ـ كنت أريد ذلك لكن صاحب البيت بنى فوقه شقة . .

سكت بائع الورد . بدا مرتبكا جدا . وأنا صرت أبتسم غير مصدق ما يقال ، واستمر حسن :

ـ سأنتقل إلى الشقة الجديدة حتى أقيم الحديقة التى أريدها فوقها . أجل . لقد فعلت ذلك من قبل .

هنا ضحكت بصوت عال ، ازداد ارتباك بائع الورد ، واستمر حسن :

ـ يضحك لأنه يعرف الحكاية . كنت أسكن فى الدور الأرضى ، لما فكرت أعمل حديقة على السطح بنى صاحب البيت فوقه شقة فانتقلت إليها ، فكرت مرة أخرى فى الحديقة فبنى شقة على السطح الجديد ، هكذا حتى وصلت إلى الدور الرابع . الدور الذى يبنيه الآن هو

الأخير . قوانين البناء تمنع الزيادة عن ذلك . الحديقة صارت مضمونة . أنا فى الحقيقة أحب الخضرة جدا . ثم الآن فرصة الحديقة فى الشمس والهواء أفضل . أليس كذلك؟

كان بائع الورد قد ولانا ظهره ، قال دون أن يلتفت .

ـ طبعا . الزرع حياته الهواء والمياه .

سأله حسن بصوت مرتفع فجأة .

ـ معك كارت؟

التفت إلينا البائع وتساءل .

ـ تكتب عليه؟

أجاب حسن :

ـ لا . كارت عليه اسمك وعنوانك وتليفونك ، ألا يوجد تليفون هنا؟ . لابد أن تقيم كشكا صغيرا وتوصل تليفون ، ذلك مهم جدا لبائع الورد .

قال الرجل فى استسلام . . بدا قد أرهقه حديث حسن جدا :

ـ إن شاء الله . .

ـ سأشترى منك ، ليس الآن فى عودتنا . الواحد محتاج يدخل مرة على زوجته ومعه عود ورد . . لكن خسارة أن ليس معك كارت حتى يسهل الاتصال بك عندما أبدأ فى الحديقة .

قلت متخلصا من الموقف كله :

ـ يا حسن . الرجل يقف فى الطريق ، حين تبدأ فى الحديقة تعال خذه من هنا . السلام عليكم . . .

وجذبت حسن الذى مشى معى يضحك .

* * *

ـ لقد أرهقت الرجل جدا . .

قال حسن وهو لا يزال يضحك ، ثم أضاف :

ـ تلاقيه فاكرنا مجانين .

ضحكت . قال :

ـ لكن تعرف زمانه سعيد . وقفنا كلمناه وسمعناه . غلبان ، لكن لعلمك لن يقف هنا كثيرا .

ـ بسبب رجال المحافظة؟

ـ لا . بسبب الورد نفسه .

ـ لكن الورد الذى عنده جميل .

ـ لا أحد يحمل وردا لأحد الآن ، ثم هذا ليس المكان المناسب . الناس هنا فقراء ، لو كان يبيع الفول كان أحسن . أراهنك إنه إما أن يترك المكان أو يبيع الفول . هذا رجل مجنون .

ضحكنا ومشينا متباعدين بعض الوقت ، كان الليل قد نزل ، وأضواء مصابيح السيارات تجرى فى كل اتجاه . قلت :

ـ علينا أن نسرع ، مطلوب أن أمشى مشية رياضية .

أسرعنا . النسمة الباردة قد إزدادت . لا أحد فى الشارع غيرنا . مشينا على الرصيف الأيمن حتى قابلتنا بعض أعمال الحفر فانتقلنا إلى الرصيف الأيسر المجاور للنهر . استغرق ذلك عدة دقائق بسبب كثرة السيارات وسرعتها . على الرصيف المجاور للنهر بعض مظلات خشبية صغيرة تحتها مقاعد . لا أحد يجلس فوق المقاعد . وصلت إلينا رائحة النهر الصامت . كان الظلام قادرا على إخفاء صفحة الماء . أكثر من عوامة مضيئة ظهرت على جانب النهر . قال حسن :

ـ لولا هذه العوامات المضيئة لما أدركت وجود النهر . . الظلام شديد الليلة .

كنت أشعر بالألم يزداد حرقة فى صدرى تحت القصبة الهوائية وفى منتصفها تماما . أعرف أنه بعد قليل من المشى سوف يختفى الألم . معركة تدور بين الدم الذى يريد الاندفاع والشريان شبه المغلق . بعد كثير من الجهد سيستجيب الشريان . يلين ويتسع للدم وينخفض الألم . المشى السريع إذن حل معقول ، لكن الإنسان لن يستطيع أن يمضى عمره راكضا . لا يجب أن أكتفى أبدا بكلام طبيب المعمل الذى قال إن حالتى ليست صعبة ، وأننى أستطيع علاجها بالريجيم وتقليل الزيوت والدهون وحبوب لضبط الضغط . الأفضل أن أذهب إلى طبيب كبير .

اتنين أو ثلاثة . أربعة . خمسة أطباء فى الحقيقة . ذهبت بزوجتى إلى ثلاثة أطباء كبار اشتركوا فى تشخيص واحد، بعد عام اكتشفنا أنه ليس صحيحا . ماتت . .

نفضت رأسى حتى لا تداهمها الذكريات المؤلمة . انتبهت إلى الرصيف الذى فجأة امتلأ بأعمدة إنارة تقوم فى منتصفه وعلى مسافات قريبة، كانت كلها مطفأة، كدت أكثر من مرة أصطدم بإحداها .

ـ هل عبرنا قسم البوليس؟

سالنى حسن فجأة . أجبت :

ـ أجل .

ـ لكننا لم نر زحاما !

ـ الزحام عادة بعد أن ينتصف الليل .

سكتنا لحظات . كان عرق قد بدا يتفصد على جسمى كله . قال حسن :

ـ لكننا المرة الماضية لم نكن فى منتصف الليل .

ـ ليس بالضرورة يا حسن، أحيانا قبل ذلك بقليل . . ليس الآن على أى حال .

ـ ألا تلاحظ أن الليل نزل بسرعة؟

فاجأنى بالسؤال . قلت :

ـ وقفنا كثيرا مع بائع الورد .

ـ هناك غش فى المواقيت

قال ذلك كمن يطلق حكمة بليغة، جملة لا تكذب ولا يمكن تكذيبها .

ثم نظر إلى ساعته وقال :

ـ الساعة الآن تجاوزت السادسة لكن الليل يبدو قد انتصف . هناك غش فى المواقيت . هناك غش فى المواقيت . تنظر فى ساعتك فترى وقتا . تنظر حولك ترى وقتا آخر .

قلت ضاحكا :

ـ يا حسن ارحمنى من أفكارك .

ضحك بدوره . أردت أن أسحبه بعيدا عن هذه الأفكار العجيبة فسألته :

ـ لماذا كذبت على بائع الورد . ؟

ضحك من جديد وقال :

ـ فى مسألة السطح؟

ـ أجل . وطلبت شهادتى على الكذب .

ـ بصراحة لا أعرف لماذا فعلت ذلك .

ـ أنت غريب يا حسن، كان يمكن أن تقول إنك لا تمتلك سطحا وكفى .

ـ عندك حق. لكن يا أخى لا أعرف لماذا لم أجد الإجابة سهلة هكذا. وجدت نفسى أتحدث عن دور بناه صاحب البيت فوق دور واحتجت إلى عربات طوب وعربات أسمنت ورمال وزلط وعمال صعايدة وحديد تسليح ومياه. ذلك يحدث فى كل مرة أريد فيها عمل جنينة على السطح.

قلت مندهشا جدا:

ـ يا حسن ذلك لم يحدث. أنت اخترعته.

ـ أعرف أعرف. لكن لماذا حقا احتجت إليه. ؟ كان يمكن حقا أن أقول إننى لا أملك سطحا الأن. عملت مشروعا كاملا وبنيت عمارة فى رأسى رغم أن المنزل ملك أبى كما تعرف وأنا أسكن فى الدور الأخير منذ بنائه وليس عندى سطح لأن أمينة شغلته ببطارية الأرانب وعشة الفراخ وعشة البط. اسمع سأهدم ذلك كله وأحضر بائع الورد لزراعة الجنينة، المهم أن يظل فى مكانه. هذا أحسن اعتذار له.

هززت رأسى وقلت:

ـ لن تهدم عشة الفراخ والبط، ولا بطارية الأرانب، ولن تزرع جنينة، ولن يبقى بائع الورد فى مكانه يا حسن.

ضحك. ضحكنا معا. وظهرت الحديقة الصغيرة.

* * *

ـ هل تذكر اسم بنت بائعة الشاى؟.

سألنى حسن. أجبت:

ـ لا.

ـ نسيناه فى ثلاثة أيام ـ يا إلهى ـ البنت جميلة يا أخى.

الحديقة على يميننا الآن، أمامنا على الرصيف العربة البوكس تقطع الرصيف راسخة فوقه وتبحلق فى الميدان، الضابط يجلس فى مقدمتها وفوقه النظارة السميكة، الجنود يحيطون بالسيارة، بعضهم يرتعش رغم أن البرد لم يشتد بعد.

بدت الحديقة مظلمة أكثر من أى ليلة، ما إن اقتربنا منها حتى سمعت هسيسا خفيضا غامضا يصدر من بين أشجارها القصيرة. لا أحد حول الحديقة، ولا حتى سيارات الميكروباص، أحسست أنها خالية من الرواد، قلت..

ـ لا أحد هنا الليلة يا حسن.

قال:

ـ ولا حتى بائعة الحلوى التى يضربها زوجها.. هل دخلنا حديقة أخرى؟

ابتسمت. اتجهت إلى أقرب مقعد وجلست، كان باردا، رأيت وجه حسن وقد غشيه الأسف قليلا.. قلت:

ـ رغم أننا لم نتجاوز السابعة بعد..

قال :

ـ قلت لك هناك غش فى المواقيت . أجل . هؤلاء الناس لا يختفون قبل أن ينتصف الليل . . حتى الميكروباصات غير موجودة .

قلت :

ـ نرتاح قليلا ثم نعود .

قال ضاحكا :

ـ وهل بقى لنا غير ذلك؟

قلت :

ـ البنت اسمها سعيدة .

هتف :

ـ صح . يا إلهى . تذكرت أنت اسمها رغم أننى المعجب بها !

ضحكت . . قال :

ـ لابد أن آخذ فيتامين B3.B و B6 وبالذات B12 . لابد من إنعاش خلايا المخ . وحبذا لو كان مخلوطا بالزنك . بيتا زنك . أجل ذكرنى فى العودة ندخل صيدلية نشتريه ، بالمرة نسألهم عن حالتك .

قلت مندهشا :

ـ حالتى أنا؟ لا . سأذهب إلى طبيب كبير .

ـ ستعود فى النهاية إلى ما قلته لك . العلاج بالغذاء . تصور قرأت أمس عشرين مقالا عن زيت بذر الكتان ، الزيت الحار ، وحوالى عشر مقالات عن زيت فول الصويا ، زيت فول الصويا رقم واحد فى تقوية جهاز المناعة ، الزيت الحار رقم خمسة .

قلت مقاطعا :

ـ حسن .

قال :

ـ اسمع كلامى ، الزيت الحار مزيل للكوليسترول لا ينافسه إلا خل التفاح .

فجأة دخل الحديقة ضابط بوليس متوسط العمر ، كانت النجوم تلمع على كتفيه فى الظلام . تطلع أمامه يمينا ويسارا وظل واقفا لحظات . عاد ينظر الينا ثم دخل إلى الحديقة ومشى فيها حتى وصل إلى آخر مقعد عند نهايتها وجلس . لم نعد نميزه فى الظلام . لكنه انحنى ووضع رأسه على صدره أو فوق ركبتيه ، لابد لأنه صار مثل كرة مستديرة من بعيد . . قلت :

ـ رأيت؟

قال :

ـ رأيت . لا أندهش ستجد الكثرين يفعلون ذلك .

ـ يبدو متعبا .

ـ ضابط بوليس برتبة كبيرة يفعل ذلك لابد أن يكون متعبا ، ربما يذكره هذا المكان بشيء ، أو تعود أن يأتي فيه حين يكون خاليا ويجلس وحده . ألم تره ينظر إلينا ، لابد أنه تردد في الدخول ثم لم يهتم . . المهم لا يأتي إليه عساكر ويقبضوا علينا .

ضحكنا بصوت عالى . رأيت الضابط يعتدل فى جلسته ثم يقف يدور حول المقعد من بعيد عده دورات ليعود يجلس كما كان . قال حسن :

ـ لا تنظر إليه . دعنى أحدثك عن خل التفاح .

* * *

لم يحدثنى عن خل التفاح ، أغمض عينه وبدا يحاول أن يتذكر شيئا . طال الصمت بنا ، لحظات قصيرة حقا لكننى لم أتعود على سكوته وهو معى ، فجأة هتف :

ـ قلت المرة الماضية إنك لا تنسى المقهى القديم الذى كان هنا ، لكنك لم تقل لماذا . . هل كان لك ذكريات فيه؟

اندهشت من تذكره شيئا لا قيمة له ، كما أننى لم أقل له شيئا عنه . بل فكرت ساعتها أن أتهرب من الإجابة وساعدنى دخول بنت بائعة الشاى التى شغلنا بها . لا أعرف لماذا لم أشأ أن أتهرب من الكلام عن المقهى هذه المرة ، قلت :

ـ ذكرى واحدة .

ـ ما دمت تذكرتها فهى مهمة .

ترددت قليلا ثم قلت :

ـ جلست فيه مرة أنتظر صديقا لى . . جلست على أحد المقاعد أنظر إلى الطريق فى الاتجاه الذى يأتى فيه من بيته ، جاء هو من اتجاه آخر ، جلس تقريبا خلفى ينتظرنى ناظرا إلى الاتجاه الذى آتى فيه من بيتى . جلسنا الوقت الكافى ولم ير أى منا الآخر . .

ـ معقول ؟

ـ هذا ما حدث بالضبط . .

ـ هو الذى حدثك بذلك؟

ـ زوجته

ـ هذه ذكرى عادية . كنت أحسب أن لديك شيئا أهم من ذلك . .

سكت قليلا . شعرت بشيء من الحزن حقا . . قلت :

ـ لم أر صديقى هذا مرة أخرى .

هتف :

ـ مات؟

ـ سافر إلى ليبيا .

قال :

ـ عادى . كل الناس سافرت وتسافر .

قلت :

ـ مات هناك . .

سكت وسكت أنا . . ثم قال بصوت خفيض . .

ـ ذكرى مؤلمة حقا . .

سكتنا من جديد ثم قال :

ـ مازلت أفكر لماذا يأتى ضابط كبير إلى هنا فى منتصف الليل . .

لم يكن الليل قد انتصف . تذكرت قوله إن هناك غشا فى المواقيت . . ابتسمت .

قال شاردا :

ـ الناس لها ذكريات هنا ، والأشجار لها ذكريات مع الناس ، لكن الأشجار لا تتكلم . .

قلت :

ـ يا حسن ، قل لى حكاية خل التفاح ، ودعنا من الحكمة الآن .

ضحك . . قال :

ـ خل التفاح يوسع الشرايين ويزيل الدهون وينشط المخ ، إنه ترياق

لا يعرف قيمته إلا العظماء . ترياق يحمله زعماء العالم معهم حتى فى رحلاتهم بالطائرات . . لا يمكن أن تتحرك طائرة بزعيم أو حاكم إلا وفيها خل التفاح . . الدول التى يتصرف زعماؤها بطيش أو غباء هى الدول التى لا يشرب حكامها خل التفاح .

ضحكت بصوت عال . وهو راح يكتم ضحكاته ولا يستطيع . يبدو أن الضابط لم يعجبه صوتنا ، ترك مكانه وتقدم إلى الباب بسرعة ، عبرنا ولم ينظر إلينا . خرج من الحديقة ، لم نهتم قال حسن :

ـ وضاحكين علينا وعاملين بيفكروا والحكاية كلها زجاجة خل تفاح . .

عدنا إلى الضحك بصوت عال ثم سكتنا فجأة . بدا لى أن ارتفاع صوتنا فى مكان خال بالليل أمر غريب حقا . . ربما فكر هو فى ذلك أيضا .

سألت :

ـ هل يحملون أيضا زيت حار . ؟

قال :

ـ يمكن جدا ـ وسكت لحظة ـ شفت رحمة ربنا الناس التى لا تستطيع شراء الأسماك ، يمكن أن تعوض ذلك بالزيت الحار ، أرخص الزيوت فيه أوميجا ثلاثة وأوميجا أربعة ، لكن أنت لا تحتاج إلى زيت حار .

ـ لماذا؟

ـ لأنك فى الأصل من الإسكندرية، ولابد أكلت سمكا كثيرا، هل أكلت سمكا كثيرا حقا؟

قلت :

ـ فعلا كان السمك رخيصا فى الخمسينات والستينات، فكنا نفطر به فى الصيف، ونتغدى به فى الشتاء.

هتف :

ـ كل يوم.؟

ـ كل يوم.

ـ لذلك عظمك ثقيل. على فكرة ثقل وزنك بسبب العظم، لا يوجد شحم كثير عندك إلا فى الكرش فقط، لابد أن أسنانك قوية، كم ضرسا خلعت.؟

ـ ضرسا واحدا....

ـ شفت؟ أنا خلعت أربعة رغم أنى أصغر منك بخمسة أعوام، فى القاهرة لم نتعود على السمك، لماذا حقا تركت الإسكندرية؟

أعادنى حسن ثلاثين عاما فى لحظة، لحظة خاطفة كأنها البرق أشعلت الحديقة وأنا أصل إلى القاهرة أكاد أتعثر فى أقدامى وأنا أمشى على أرضها خارجا من محطة رمسيس.. القاهرة ـ يا إلهى ـ هل أعيش

فيها حقا منذ ثلاثين عاما؟! لماذا أتوه فى شوارعها حتى الآن؟ لماذا لم أعرف فيها غير بيتى وعملى؟! كل مكان ذهبت إليه فيها نسيته بعد أن أتركه، المقاهى التى جلست فيها مع أصدقائى، الحدائق التى لعبت فيها مع ابنى وبنتى وهما صغيرين، السينمات التى دخلتها، لم يبق من ذلك كله إلا بسمة زوجتى التى لا تزال تخايلنى فى الفضاء، وهى تمرح وراء الأطفال، وهى تضحك فى البيت، وهى تتأبط ذراعى فى المساء عائدين من مكان لا أذكره.. هذه البسمة التى تعيش معى، توقظ نهر الحزن فى نفسى، تشعل دموعى. غير قادر أنا على الاقتناع بأن البسمة صارت بلا صاحب، صارت معلقة فى الفراغ، معلقة فى العدم.. قلت بصوت واهن :

ـ هل نسيت يا حسن؟

قال بهدوء.

ـ صحيح، لقد جئت بسبب الحب، رأيت زوجتك فى الصيف على البلاج فجئت وراءها، لماذا لا تعود إلى الإسكندرية الآن؟ هل تحب القاهرة إلى هذا الحد.؟

قلت :

ـ لم أحب هذه المدينة أبدا.

قال :

ـ هذا يجعلك تعود إلى الإسكندرية.

قلت :

ـ ابنتى تزوجت شابا قاهريا كما تعرف ، وابنى يحب بنت قاهرية . أنا لا أطيق فراقهما . .

سكتنا لحظات ، قال كأنما يحدث نفسه .

ـ الحب جاء بك إلى هنا والحب يمنعك من العودة إلى هناك .

ثم ضحك وقال :

ـ أنا اتلخبط .

ابتسمت وواصل هو الكلام . .

ـ هذه مثل حكاية بائعة الشاى السمراء وبنتها البيضاء ، وبنتها البيضاء وابنها الأسود .

ضحكت ثم عدنا إلى الصمت ، قلت :

ـ هل تحب أن أعود إلى الإسكندرية؟

ـ لا . أنا أزعل جدا .

قال حسن ذلك وأطرق إلى الأرض . كانت النسمة الباردة قد ازدادت . . . قلت بعد أن نظرت حولى :

ـ كيف لا يوجد أحد بالحديقة .

قال :

ـ لم يكن ذلك يحدث من قبل قط ، فى السبعينات وليس حتى الستينات من القرن الماضى ، وكان عدد السكان ثلاثين مليونا ، كنت دائما تجد الناس فى الحدائق حتى بعد أن ينتصف الليل .

وتنهد تنهيدة طويلة . . وقال :

ـ يا إلهى . كان ذلك كله فى القرن الماضى . تصور .

فكرت قليلا وقلت :

ـ فعلا . صعب جدا أن تقول القرن الماضى ولم تمر بعد خمس سنوات من القرن الجديد .

قال :

ـ ألم أقل لك إن هناك غشا فى المواقيت .

سكتنا . وأطرق حسن شاردا شرودا لم أره من قبل وهو ينظر إلى الأرض . .

[٤]

كيف لم يعد حسن يعرف النور من الظلام؟

أو

لماذا يحب أن تتعطل ذاكرة الناس؟

كنت أفكر فى الاختيار الذى وصلت إليه، الجنس أو العلاج. دنيا التى قابلتها اليوم لم تفعل كل شىء. بدت فى حاجة إلى شخص يقهرها. استطعت لكن أنفاسى تسارعت بقوة، واحتجت إلى دقائق بعد أن انتهينا حتى أعود إلى طبيعتى.

ـ مالك؟

سألت بإشفاق. أجبت:

ـ لا شىء، يبدو أننى مرهق قليلا..

ابتسمت وقالت:

ـ لا تأت إلا وأنت مستريح.

لكنى لمحتها تختلس نظرة سريعة إلىّ.. ثم استدارت ناحيتى وربتت على كتفى وقالت:

ـ لا تقلق، قلل السجائر..

كنت شاردا أنظر فى السقف، حان وقت الذهاب إلى الطبيب، لقد ذهبت من قبل كارها، وخضعت لفحص المسح الذرى كارها، لم أعد

أثق فى الطب ولا الأطباء، ليس بسبب ما جرى لزوجتى فقط، لكن بسبب ما أقرأه فى الصحف عن الذين يموتون فى المستشفيات، وما رأيته فى المستشفيات من إهمال . . ثم أنى أخاف فعلا أن تكون نتيجة المسح الذرى خطأ، ما الذى يمنع؟

لم يعد إلا التخلى عن الجنس، فهل يمكن؟ ابتسمت، لا أستطيع البعد عن دنيا ـ على الأقل الآن ـ سأجد طريقة أعيدها بها إلى نشاطها، وربما هى لا تنتظر منى أن أجد الطريقة، لابد أنها ستعود إلى جنونها دون حاجة منى، إنها من الكياسة لدرجة تدرك بها أنى فى حاجة لفاعليتها، يمكن إذن تأخير الطبيب .

❊ ❊ ❊

هتفت

ـ حسن . . أهلا . .

لم يرد ودخل بسرعة إلى الصالة. تعودت أن يتلفن لى قبل أن يزورنى، لم يفعل هذه المرة، ما إن جلس حتى قال :

ـ كان لابد أن أراك .

قلت وأنا أقف :

ـ تشرب شاى؟

ـ أخضر .

دخلت إلى المطبخ وضعت البراد فوق البوتوجاز بسرعة وعدت إليه، كان يقلب فى قنوات التليفزيون، سألته .

ـ مالك؟

أجاب :

ـ لا أجد الفيلم .

سالته :

ـ أى فيلم .

ـ عربة اسمها الرغبة .

ابتسمت لكنه استطرد .

ـ كيف حقا أرغب فى فيلم ولا أجده، هل أجده فيديو . . ؟

فكرت لحظة وقلت :

ـ فى مصر؟ لا أظن، ربما نجد صديقا فى الخارج يرسله إليك . .

هزّ يده يائسا، جلست أمامه، قال وهو ينظر حوله :

ـ ستظل متخلفا عن العصر، مادمت لا تشترى كمبيوتر وليس فى مكتبتك سيديهات .

أعرف أن حسن مثلى يحب القراءة، ربما هذا ما قرب بيننا منذ سنوات طويلة، قابلته فى العمل فكان مدهشا لى أن أجد شخصا يحب

اقتناء الكتب وقراءتها وسط الموظفين، منذ خمسة أعوام تقريبا فتنه الكمبيوتر، شيئا فشيئا احتلت السيديهات مكانا كبيرا فى غرفته التى خصصها مثلى للكتب. الكتب نفسها تغيرت فصار فيها عناوين عن البرمجة وأنواع البرامج وطرق تعليم اللغات والكتابة على الكمبيوتر وبينها سيديهات لقواميس كاملة ودوائر معارف ومجموعات أدبية، شعرية بالذات، وسيديهات عن الأرض والفضاء وعادات الشعوب والحروب وتاريخها وغير ذلك مما لايمكن إحصاؤه. فى الحقيقة هو دائم التجوال فى الأسواق القديمة. يعثر دائما على سيديهات رخيصة ربما لا يعرف الباعة قيمتها، يفرح جدا بها ويحدثنى عنها ثم يضعها فى المكتبة ونادرا ما يراها، فهو يحب البحث فى الإنترنت. وهو فضلا عن عشقه للكمبيوتر لديه مهارات خاصة فى التعامل مع الدش، فهو يرتب المحطات الفضائية حسب أهميتها بالنسبة إليه، ربما كان هذا سهلا، لكنه يفك شفرات المحطات المدفوعة الأجر، يقول إنه سهل أيضا، وأهم ما يحرص عليه فى الغرفة معه جهاز صغير لقياس الضغط، جهاز يابانى يوضع حول الأصبع السبابة يرى فيه آخر تجل للعبقرية اليابانية. يضعه دائما على رف مجاور للكنبة التى يتمدد عليها ويتابع التليفزيون، بين الحين والحين يمد يده إلى الجهاز ليقيس درجة الضغط، حين يرتفع ضغطه يغير البرنامج، حين ينخفض يغير البرنامج، ورغم أنه نادرا ما يحدث هذا أو ذاك إلا أنه لا يتخلى عن جهاز الضغط. يقول إن برامج التليفزيون ترفع الضغط أو تخفضه بشكل غير ملحوظ، يمكن أن تسرقك كما يفعل الضغط نفسه مع

صاحبه عند الفجر، وأنه كثيرا ما يحدث له هذا حتى إذا رأى برنامجا مبهجا أو فيلما ممتعا، ففى الوقت الذى يبدو هو فيه كمشاهد سعيدا جدا، يمكن أن يكون ضغطه قد ارتفع لأسباب أخرى لايدركها العقل ولا تشعر بها النفس، فالإنسان فى رأيه أكثر من واحد، وإن كان يبدو واحدا، وهناك داخل كل منا إنسان آخر قد لا يكون راضيا أبدا عما يفعل الإنسان الواضح أمامك، وقد يتسبب فى قتله، لأنه ببساطة لا أحد يحب أن يمرض أو يموت، فمن إذن الذى يفعل ذلك. ؟ شخص آخر داخل كل إنسان يرى أنه يستحق ذلك!!

❋ ❋ ❋

دخلت إلى المطبخ بسرعة، تذكرت الشاى الأخضر، وجدت الماء قد جف فى البراد، وضعت ماء جديدا وعدت، رأيته يحرك شفتيه بكلام غير مسموع، يحتاج حسن أن أسمعه أكثر من أى وقت، لابد أنه نسى الشاى الأخضر، قبل أن أتكلم انطلق فى الحديث.

ـ أمس ارتديت بالليل بلوفر فوق بلوفر آخر، كنت أشعر ببرد شديد.

قلت:

ـ كان الجو أمس باردا جدا فعلا.

قال:

ـ تصورت أمينة أننى مريض. حين تتصور أننى مريض لا تتركنى

فى مكتبى بسهولة . تظل تسألنى عن حالتى وأقنعها بصعوبة أننى لست مريضا ، بالأمس قبل أن تسالنى عن مرضى أعلنتها أننى أريد أن أبيع بطارية الأرانب .

سألته :

ـ لم توافق؟

أجاب :

ـ قالت لى أى بطارية؟ لقد بعناها من زمان .

نظرت إليه فى دهشة ، قال هو أيضا فى استغراب :

ـ لما سالتها من أين تأتى بالأرانب التى نأكلها أجابت أنها تشتريها ، أخبرتنى أن مشروع الأرانب فشل وأنا أعرف ، بدا أنها تشك فى سلامة عقلى ، وابتسمت ، طلبت منها أن تهدم عشة الفراخ وعشة البط فقالت إنها فعلت ذلك من زمان أيضا . . إزداد شكها فى سلامة عقلى . قالت لى بنفسها «سلامة عقلك يا حبيبى» ثم قالت لى إننى طول عمرى أحدثها عن أشياء موجودة وتكون غير موجودة ، وأننى كنت أفعل ذلك حتى أربكها . قالت إنها ارتبكت فعلا لفترة طويلة ثم منذ خمس سنوات أدركت ذلك ، أصبحت تنفذ كلامى بالعكس ، ولم تعد تعانى من أى توتر كالذى كانت تعانيه من قبل ، وأنها تحملتنى لأنها تحبنى .

قلت مبتسما :

ـ بصراحة يا حسن هى على حق ، لابد أنك كنت تفعل ذلك حقا .

قال وهو يبتسم أيضا :

ـ لا أكذب عليك كثيرا ما كنت أفعل ذلك ، لكنى هذه المرة كنت جادا ، أنا أسمع أصوات الدجاج والبط وحركة الأرانب بالليل .

سألته ضاحكا :

ـ هل قلت لها ذلك؟

أجاب :

ـ طبعا ، ولم أكن أكذب ، لقد اقتربت منى وأخذتنى فى حضنها وقبلتنى على رأسى ، أشعرتنى أننى تعبان نفسيا وأحتاج إلى رعاية ، أحرجتنى جدا وهى تقول إنها عرفت مؤخرا أننى كنت أفعل ذلك حتى لا أعطيها فرصة أن تحاسبنى على شىء ، ألخمها يعنى ، وقالت بهدوء وهى تعض على الكلام إننى أفعل ذلك طول عمرى حتى لا تجد الفرصة لتسألنى عن التليفونات الليلية التى أرد عليها ، والبارفان الذى أحرص على استخدامه كلما خرجت والخطابات التى تصلنى وأمنعها أن تفتحها قبلى ثم أضيعها . قالت أشياء كثيرة وأنا أندهش لأنى لا أتحدث ليلا إلا معك وكلما اشتريت بارفانا لى اشتريت لها ولا تأتينى خطابات من أحد ، لذلك طلبت منها أن تسكت حتى أجد الفيلم . .

قلت :

ـ أى فيلم؟

قال :

ـ قلت لك من قبل عربة اسمها الرغبة، سوف أجن إذا لم أره، لقد تذكرت المسرحية كاملة.

ـ إذا كان ولابد فيمكن لك أن تجده على الإنترنت.

قال:

ـ وجدته فى أحد مواقع السينما ولكن لا يمكن دخول الموقع إلا بفيزا كارد.

سكت لحظات وقلت متخابثا.

ـ بعض الناس يدخلون هذه المواقع بدون الفـيـزا.. يفكون شفرتها..

قال:

ـ أنا لا أفعل ذلك..

ابتسمت. ربما لم يعد يفعل ذلك حقا، أو ربما عجز عن دخول الموقع، قال:

ـ فى النهاية تركتنى، رحت أبحث عن الفيلم فى المحطات الفضائية حتى يئست، كان البرد شديدا عند قدمى وأنا أتمدد فوق الكنبة فارتديت الشراب، هناك دائما شراب ملقى فى غرفتى على الأرض لاستخدامه فى مثل هذه الحالات، لقد رأيته أنت أكثر من مرة...

قلت:

ـ فعلا، ودائما أندهش. ربما يحدث ذلك مع أرمل مثلى لكن فى حالتك يدهشنى الأمر.

قال:

ـ أمينة حريصة أن تحمله فى الصباح وتضعه فى المكان المخصص للجوارب لكنى دائما آتى به وألقيه على الأرض، سواء كان الجو باردا أو لا. أحب إذا دخلت الغرفة أن لا أخرج إلى غرفة النوم حيث تضع أمينة الجوارب والملابس الداخلية ـ وضحك ـ لم نفكر لا أنا ولا أمينة فى وضع خزانة صغيرة فى غرفتى للجوارب، كلانا فيما يبدو مستمتع باللعبة..

تركته بسرعة عندما تذكرت الشاى الأخضر من جديد، كما حدث فى المرة السابقة وجدت الماء قد جف، فكرت أن حسن لم يعد بحاجة إليه، أطفأت البوتاجاز وعدت مبتسما.

ـ مرتين جف الماء، هل تحتاج حقا إلى الشاى الأخضر؟

لم يرد، بدا شاردا. نظر إلى بعيد كعادته حين يتكلم، لكن تأخر قليلا فى الكلام.

* * *

بعد أن وضعت الجورب فى قدمى سحبت البطانية فوقى، واعتدلت على الكنبة ممددا ساقى مسندا ظهرى إلى مخدة بينى وبين الحائط خلفى. استخدمت جهاز قياس الضغط فوجدت ضغطى ليس

مرتفعا كثيرا، ورحت بجد أبحث عن الفيلم، مدركا أنه مادام قد عرضته إحدى المحطات مرة، فسوف تعيده أو سيعاد في غيرها. أكثر من خمسين محطة بحثت فيها ولم يوقفني إلا قياس الضغط مرة أخرى، وجدته قد بدأ في الارتفاع. قلت لا يجب أن أفتح الطريق للشخص القابع داخلي يقتلني، شربت قليلا من الكركدية البارد، وقليلا من شراب الدوم، أنت تعرف أنني لا أحب الدواء، ونظرت حولي فوجدت شيئا قد سكن معي في الغرفة. هل تعرف ماذا كان؟. الصمت. لقد استقر ونام حولي ففزعت. تركت الكنبة ووقفت وسط الغرفة أتأمل الضوء الشديد المنسكب فيها من المصباح الفلورسنت. ياإلهي. أي بياض سابغ رأيته حولي؟ لقد اتسعت الغرفة وصارت مثل فناء مدرسة في يوم خريفي مشمس. أحسست فجأة بأنها غير متصلة بالشقة، ولا بالبيت، وأن هناك مسافات من الأزمنة والفراسخ بيني وبين أسرتي، زوجتي وابني وبنتي، وهاجمني هاجس، ما الذي يمنع سقوط الغرفة في فضاء الشارع؟ خفت، ارتعشت، ثم تأملت النور مدركا أنه وحده القادر على إشاعة شيء من الفرح في نفسي، قلت إن هذه نعمة إلهية تحدث لي الآن فقط، فلا يمكن أن يكون كل هذا الضوء لا شتداد مفاجئ في التيار الكهربي، ولا لأن الناس في الدنيا نيام. وأحسست بدفء لذيذ فخرجت من الغرفة أمشي على أطراف أصابعي، لم أشأ أخدش ذلك الصمت. فضاء من فضة تسري فيه عروق من ذهب. أي والله يا أحمد. لقد بدت لي الصالة أيضا واسعة جدا، المقاعد فيها لامعة متألقة، التليفزيون الصامت، الذي عادة

ما تتفرج زوجتي عليه، والذي يثير ضحكها وضحك البنت والولد، حتى خيل لي أنه لا يبث إلا أفلام الكوميديا. بدا لي هذا التليفزيون مثل تمثال الكاتب المصري الذي تركه الفراعنة. كتلة من الصمت المغلف بالوداعة والرضا.

فكرت إذا كان العالم كله قد سكن هذا الجهاز فهو عالم تافه، وإذا كان يسكن في الجهاز الأصغر الموجود في غرفتي فهو أتفه، وربما يستحق الشفقة. يا إلهي. أقصى خيال للبشر حبس المارد في القمقم زمان. العلم الآن يحبس العالم في التلفاز.

دعني أقول التلفاز، فهي كلمة بها إحساس صوفي وأحيانا توحي بالسخرية. أجل نقول تلفاز كما نقول طز! رغم أن علماء اللغة العربية الذين نحتوا هذه الكلمة ربما لم يسعدوا بكلمة أخرى نحتوها سعادتهم بالتلفاز، فهي موجزة سريعة نافذة، لكن كيف فاتهم حقا أن بها مسحة من الهزء لا تتناسب مع العالم الثري الذي يموج داخل هذه العلبة؟ أشياء كثيرة فاتتهم فلماذا أقف عند هذه فقط؟ تركت الصالة إلى غرفة النوم. وجدت أمينة قد نامت وجوارها البنت. لقد أدركت أن البحث عن فيلم يعني قضاء الليل كله ركضا وراء العالم. لعلها قالت عني مسكين. اقتربت منها وأنحنيت أقبل كلا منهما على جبهتها. لقد نسيتا نور الغرفة مضاء! شعرت البنت بالقبلة فتحركت لحظة ثم سكنت. خرجت على أطراف أصابعي. مددت يدي أطفئ النور فاشتعلت الغرفة بالضوء! «طفي النور» هتفت أمينة وهي تحجب الضوء عن عينيها بيدها. ارتبكت. كيف حقا كانت الغرفة مضاءة بينما هي في

الحقيقة مظلمة. ذلك لم يحدث معى من قبل . كان الضوء لا يزال يمشى معى . عدت من الغرفة بسرعة بعد أن أعدت مفتاح الكهرباء إلى وضعه . أظلمت ولم أرها تظلم . أى والله يا أحمد . وقبل أن أدخل غرفتى حدث ما هو أغرب .

وسكت حسن . بدا كمن يريد نى أن أخمن ماذا حدث . كنت فى الحقيقة منشغلا بالتفكير فيما قال ، مندهشا من هذه الطاقة الشعرية فى الحكى . قال :

ـ رأيته . هل تعرفه؟ خمن!

أجبت :

ـ لا أعرف ماذا رأيت .

قال :

ـ تعرفه جدا .

ابتسمت . قال :

ـ الطيف . الطيف الذى حدثتنى عنه زمان ، الذى كان يظهر لك كثيرا حين تكون منكبا على كتاب تقرأه فى غرفتك ثم ترفع رأسك فتراه يمر من أمامك .

قلت فى دهشة :

ـ ياه يا حسن . ذلك كان منذ وقت طويل . كيف حقا نسيت ذلك؟

ـ هل تذكر عدد السنوات التى لازمك فيها؟

قلت فى أسى :

ـ لا أذكر إلا أنه انقطع بعد وفاة زوجتى . .

سكت لحظات . بدا متأثرا . ثم قال :

ـ حتى الطيف هجرك . أنت والله قوى حتى تتحمل هذا كله .

ولابد أنه رآنى أكاد أتأثر . قال :

ـ ترددت فى دخول الغرفة ، وشعرت بالبرد يعود من جديد إلى جسمى . البرد الذى لا يدركه إلا العجائز . هل تذكر قصيدة كفافيس عن العجائز .

قلت :

ـ أذكرها لكننا لم ندخل هذا السن بعد .

ـ تذكرت معظم أبياتها وأنا أمام باب الغرفة . هل زحفت الشيخوخة علىّ إلى هذا الحد؟ خفت أن أدخل فأجد الطيف قابعا مكانى على الكنبة ، لم أجد مناصا من الدخول . فكرت أن أدخل غرفة ابنى ، لكن لم أشأ إزعاجه . لقد التحق بالجامعة هذا العام كما تعرف ، صار له أصحاب كثيرون يدخلون ويخرجون بلا موعد أو نظام . لقد اشتريت له جهاز كمبيوتر وحده ، لأن أصحابه كانوا عادة ما يتجمعون معه حول الجهاز فى غرفتى ، الآن يتجمعون عنده . إنه ينام مرهقا بسبب الجامعة

التى يحرص على الذهاب إليها ليمضى اليوم فى حدائقها، وبسبب الألعاب التى يلعبها على الكمبيوتر مع أصحابه. هل تظن أن تلميذا يمضى وقته على هذا النحو يمكن أن ينجح. ؟

ابتسمت. قلت:

ـ لا تقلق. إنهم ينجحون.

قال ضاحكا:

ـ المدهش أننى حين دخلت إلى غرفتى لم أجد الطيف ـ وضحك أكثر ـ وجدت التلفاز، التلفاز، لاحظ ذلك، يبث مباراة فى كرة القدم بين فريقى سان جيرمان وليون. كثيرا ما يبثون مباريات كرة القدم بالليل، وهذا يدهشنى كثيرا من المحطات الأجنبية. المهم تمددت من جديد على الكنبة. عدت أبحث عن الفيلم ووقعت الواقعة.

* * *

رن جرس التليفون ففكر حسن الذى أخبرنى بذلك كله أننى الذى أتصل به، هذا موعدى دائما، وموعده أيضا. موعدنا معا، حقا، فكثيرا ما يطلب منا الآخر فى مثل هذا الوقت ليكتشف كل منا أن الخط مشغول، ثم نعرف أن السبب هو أننا كنا نتصل فى وقت واحد. . ألو. سمع حسن صوتا أنثويا جميلا مرتبكا، مما جعله يرتبك أيضا، فأخفض صوته وسأل:

ـ من حضرتك؟

ـ أنا سعيدة

ـ سعيدة من؟

ـ سعيدة التى قابلتها فى الجنينة.

ـ دقيقة واحدة من فضلك.

نهض وأغلق باب الغرفة وأطفأ النور أيضا. ليته ما أطفأ النور. هكذا قال فى النهاية.

ـ سعيدة بنت بائعة الشاى؟

ـ أجل.

ـ غريبة. من أين تتحدثين فى مثل هذا الوقت؟

ـ من الشارع.

ـ الساعة الثانية صباحا؟

ـ ولو.. الشارع كله ناس سهرانة. بكرة أجازة رأس السنة الهجرية. كل سنة وحضرتك طيب.

ـ لكن كيف حصلت على رقم تليفونى؟

ـ أنت أعطيته لى الليلة.

ـ الليلة !؟ الليلة لم أذهب إلى الحديقة لا أنا ولا أحمد.

ـ إذن من أين حصلت على الرقم؟ أنت فقط تنسى.

ـ طيب يا سعيدة.. أنا.. أنا..

ـ أنت متلخبط صح؟ خلاص. لكن أنا أحب أشوفك. ممكن بكرة؟

انقطع الخط. وحسن بدوره راح ينظر إلى سماعة التليفون غير مصدق. اتسعت عيناه إلى آخرهما كما قال، ثم أعاد السماعة إلى مكانها، بدأت ابتسامة تتسع على فمه فى الظلام. بدأ يشعر أن وجهه يتهلل بالفرح. ممكن جدا أن يكون قابلها الليلة ونسى، هو دائما ينسى، وأنا كذلك، هكذا فكر. ألم تقل زوجته أول الليل إنه باع بطارية الأرانب وهدم عشة الفراخ وعشة البط؟ ثم أن النسيان هو بطل هذه الأيام، ولولاه لمات الناس جميعا. أجل لقد قرأ مرة قصة لكاتب روسى عن شخص استيقظ ولديه القدرة على تذكر كل شىء، آخر النهار انفجر رأسه من كثرة ما قفز إليه من ذكريات. يوم واحد من الذكريات فجر رأس الروسى. لا يحتاج المصريون إلى أكثر من ساعة، من يستطيع أن يتحمل ذكريات الظلم الذى جرى فى حضارة عمرها سبعة آلاف سنة، يكفى أن يتذكر الواحد أعداد الكلاب الضالة التى تمتلك الشوارع المظلمة بالليل الآن بعد أن كانت القطط هى سيدة الأزقة زمان قبل أن تختفى مع ظهور صناعة اللانشون، أو يتذكر أصحابه الذين ماتوا جميعا فى يوم واحد، أو أن عمره فى الدنيا ثلاثة رؤساء، وإذا مد له الله فى العمر، أربعة، وكان يمكن أن يكون عمره رئيس واحد، لولا أن تدخل الله أكثر من مرة فقبض روح واحد وسلط شخصا اغتال الثانى. حسن باختصار اكتشف أنه على هذا النحو يكون عمره قصيرا جدا، وأن هذا هو السبب الأرجح لقصر العمر، ومن ثم

لا يحب لنفسه ولا لى ولا لأى شخص فى بر مصر أن يتذكر شيئا، وهكذا فلابد أننا خرجنا معا إلى الحديقة، أو ذهب هو.. قام ليضىء النور حتى يستطيع مهاتفتى، وعندما داس على زر المفتاح الكهربى انطفأ النور، هو إذن لم يطفئه المرة السابقة، أشعله وكان يتابع التليفزيون فى الظلام، وهذه ليست عادته. فى الحقيقة لم يعرف النور من الظلام. لقد هاتفنى فعلا لكنى لم أرد عليه، أول ليلة لا أرد عليه ـ وسكت قليلا فاعتذرت له لأنى بالفعل نمت متعبا أمس، ولم يهتم باعتذارى، لم يكن فى حاجة إليه، عاد يحكى ويقول ـ إنه فكر أن يعيد الاتصال بسعيدة ليتأكد من صدق المكالمة، رأى الرقم على شاشة ذاكرة التليفون. اتصل. رد عليه صوت أجش:

ـ حضرتك صاحب المحل؟

ـ ـ أجل.

ـ شكرا..

أغلق الخط وهتف بلا صوت، سعيدة لا تكذب. هناك رقم وهناك محل سهران. سعيدة لا تكذب. لقد رآها الليلة حقا. أى فتاة جريئة هى؟ وجه أبيض مشرق على جسد مرمرى يضمر عند الخصر فينهد نهداها بشهيق لا نهاية له، شهيق مفعم بالدعوة، يذوب فيه بين أحضانها وهو ينزل جلبابها الأسود عن جسدها من أعلى بعد أن فك أزراره الخلفية فلا يجد تحته إلا رخاما يحترق، وضوءا محبوسا منذ آلاف السنين يملأ الغرفة وهو يتحول من الأبيض البازخ إلى الأحمر

الوردى ويتضوع منها عطر جميع الورود التى خلقها الله . . لقد نهض وأطفأ النور من جديد. تكاثر عليه الضوء حتى كاد يحترق، ثم أنه يريد أن يتلذذ مع تلذذها فى الظلام وهى تفقد وعيها بين ذراعيه بعد أن أريق الدم على جوانب شرفها !

ـ من أين أتى الطفل الأسود إذن؟

ـ من أبيه الأسود. لقد عرفت ذلك من قبل.

ـ لكنك عذراء

ـ حكمة ربنا

ـ هل كنت تعرفين؟

ـ من تستطيع أن تعرف؟

ـ ألم يفض بكارتك . ؟

ـ فضها بعنف حيوان.

ـ كرهتيه؟

ـ مثل العمى

ـ إذن أنت ملاك.

ـ يا حبيبى.

وأغمض عينيه لحظات يشرب فيها اللذة إلى نهايتها حتى قالت:

ـ حسن يا حبيبى.

ـ نعم.

ـ أنا فرحانة قوى.

ـ وأنا أيضا.

ـ من زمان لم تلمسنى.

ـ لم أكن أراك.

ـ إلى هذا الحد. ؟

ـ هذه حقيقة.

ـ غريبة.

ـ ربما تقابلنا فى الأحلام.

ـ حسن يا حبيبى.

ـ نعم.

ـ من أين حصلت على الحبوب الزرقاء؟

ـ الفياجرا؟

ـ أجل. وجدتها فى محفظتك.

ـ محفظة.

هتف وقد أدرك كل شيء، فانتفض جالسا على الكنبة التى اتسعت لذلك كله، رغم أنه حين يتمدد عليها يجدها دائما ضيقة .

ـ مالك . ؟

أخذ يتلفت حوله غير مصدق، هكذا قال، وأنا أضحك ولا أستطيع أن أكف عن الضحك . هتفت وأنا أسعل من شدة الضحك . .

ـ كانت زوجتك .

ـ أجل .

ضربت كفا بكف .

ـ كيف دخلت ولم تشعر بها؟

ـ قلت لك أطفأت النور . ليتنى حقا ما أطفأته .

ـ وماذا فعلت؟

ـ سكت و سكتت هى لحظة ثم قالت فجأة إننى لم أكن معها تماماً . قلت أبداً أبداً وشعرت بالعرق يسيل على رقبتى . قالت إنها ستصدقنى قلت أنا أخذت هذه الحبوب من أحمد . كنت أتحدث ذاهلاً كأنما شخص أخر داخلى هو الذى يتكلم فقالت إذا كان أحمد الأرمل يأخذ فياجرا فمعنى ذلك إنه ماشى غلط . استجمعت نفسى و هتفت من قال لك إنها فياجرا يا امرأة؟ قالت أنت قلت لى، سألتك فأجبت . اختلط الأمَر علىّ لكنى استطعت أن أقول إنها حبوب لتخفيض الضغط .

قالت سواء كانت لتخفيض الضغط أو لغيره فلابد أن أبعد عنك لأن هذه الحبوب هى سبب ذهولى . قلت لها أنا لم أكن ذهلاً ثم لماذا أبعد عن صديقى وهل لا يوجد فى مصر غير أحمد إبراهيم . هناك مليون أحمد فى مصر، قالت إنك الوحيد الذى أحبه، قلت لها إننى أحب أيضا أحمد على وأحمد مرسى وأحمد سعيد وأحمد نظيف، وفى الشغل عندى خمسة موظفين يحملون اسم أحمد . فى النهاية قالت طيب حقك علىّ . ممكن تأخذ حبوب من أحمد إبراهيم أو أى أحمد اخر وإن شاء الله سوف تمشى مجنون فى الشوارع، وقبلتنى وخرجت بعد أن تركتنى جالسا فى ذهول !

كنت أنا أيضا فى ذهول مما قال، وكان واضحا أنه فى حيرة من الشكوك التى ساورت زوجته، فهى يمكن أن تصدق أن الحبوب الزرقاء لتخفيض الضغط لكنها لن تنسى ما سمعته، ولابد أنها سمعته يهذى باسم سعيدة، ومن ثم ستفاجئه بذلك يوما . .

أمسك بالريموت كنترول وراح يقلب قنوات التليفزيون، كأنما يشغل نفسه عن الوساوس التى تهاجمه، ولم يطل التقليب، ظهر أمامنا فيلم عربة اسمها الرغبة فهتفت :

ـ الفيلم!

اتسعت عيناه إلى أقصى مدى، كان الفيلم فى نهايته، جيسيكا لانج فى طريقها إلى المصحة العقلية واضعة ذراعها فى ذراع الطبيب الذى قالت إنها كانت تنتظره منذ وقت طويل . لقد انتهى الفيلم وظهرت

التترات الأخيرة. رأيته يضغط على الريموت بقوة كأنما يريد أن يثبت الفيلم أو يعيده، ثم ترك الريموت جانبا وبدا عليه الأسف. أدرك فيما يبدو أن ما يراه ليس شريط فيديو، إنما هو إرسال تليفزيونى من بعيد، يتحكم فيه ناس آخرون، أمسكوا وحدهم بمفاتيح اللذة ومفاتيح الألم..

[٥]

كيف أنقذنى حسن من موت محقق؟

أو

لماذا يجب أن يشترى الإنسان كلبا..؟

ـ إرم هذا الدواء فورا . . .

هتف حسن بذلك وأنا أطلعه على الأدوية التى اشتريتها بعد أن زرت الطبيب . لم أجد مهربا من الزيارة . خفت أن أقلع عن الجنس وأموت معا ، وواصل حسن الحديث بجدية بالغة :

ـ التينورمين لارتفاع الضغط لاضرر منه ، وإن كنت أفضل لك الكركديه البارد وشراب الدوم ومزيج القرفة مع الزنجبيل والشمر . هذه كلها كما قلت لك نباتات لتخفيض الضغط ، وأن تحرص كما قلت لك أيضا على خل التفاح ، والزيت الحار ، لكن ماذا أفعل معك . أنت تحب الأدوية . ليكن . والأسبوسيد أيضا ممتاز لسيولة الدم ، لكن يمكن أن تأكل فصين ثوم صباحا أو مساء وتستغنى عنه إذا رغبت . أما هذا النيتروماك فسيقتلك فى اللحظة نفسها التى تتناول فيها الفياجرا . . .

قلت فى حيرة :

ـ النتروماك يا حسن لتوسيع الشرايين .

هتف :

ـ والفياجرا لتوسيع الشرايين، تخيل أنت دوائين معا لتوسيع الشرايين. ستنفجر.

أحسست بوجهي يمتقع، بالخوف يسرى فى أطرافى، قلت بصوت لا يكاد يسمع.

ـ كنت سأقابل دنيا غدا.

ـ قابلها لكن بلا فياجرا. يكفى النيتروماك الذى أخذته أمس واليوم، ثم لماذا أعطاك الطبيب نيتروماك طويل المفعول. هذا الدواء يؤخذ فقط عند اللزوم، ومنه نوع يؤخذ تحت اللسان، لكن صدقنى حالتك لا تحتاج لذلك. اسمع. اسمع. زميلنا على يأخذه. سأتصل به أمامك..

طلب على فى التليفون وسأله هل يأخذ فياجرا مع النيتروماك، ثم أعطانى سماعة التليفون وقال اسمع.. استمعت لعلى الذى أكد كلام حسن، فتركت السماعة وأغمضت عينى أفكر هل حقا كنت سأموت غدا؟

ـ أنت مدين لى بحياتك.

قال ضاحكا لكنى احتجت لدقائق حتى أستوعب المسألة.

ـ لا أعرف كيف لشخص مثلك يذهب إلى الأطباء. صدقنى أنت محتاج إلى كمبيوتر تدخل منه إلى المواقع الطبية وتعالج نفسك ـ ثم هتف ـ جميع مشتقات النيترات خطرة جدا. أحمد الله وهيا بنا إلى الحديقة..

كنت بدأت أشعر بالعرق يتفصد على جسمى كله، وبالبرد يشملنى، قلت بصوت مخنوق:

ـ إذن لن أقابل دنيا غدا.

قال:

ـ قابلها، لكن لا تترك الفياجرا فى جيبك حتى لا تنسى وتأخذها. ثم سأدلك على ما هو أفضل من الفياجرا. زيت السمسم. اشرب ملعقة زيت سمسم كل مساء ستقوم مقام الفياجرا..

سألته غير مصدق.

ـ لكنك تأخذ الفياجرا التى أعطيتها لك..

ـ لم آخذها أبدا. وجدتها أمينة فى محفظتى فتصورت إننى آخذها.. أنا مواظب على زيت السمسم.. قلت لك هيا بنا إلى الحديقة. سوف أجن إذا لم أر سعيدة اليوم.

* * *

تركنا الشقة ونزلنا السلم نضحك. كان حسن قد حدثنى عن حرصه الشديد بعد الحلم العجيب الذى عاشر فيه سعيدة، بينما كانت النائمة جواره أمينة زوجته. قال إن ممارسة الجنس فى حالة من اليقظة التامة تجربة لا بأس بها أيضا. والواحد فى الدنيا ياما يجرب وياما يشوف، وأرجع ما جرى من قبل، هذا الخلط بين سعيدة وأمينة، إلى مرض قديم فى عائلته هو شلل النوم، قالها بالإنجليزية «sleep paralysis»

ولأنى لا أعرف شيئا عن هذا المرض، ولا أى مرض فى الحقيقة، شرحه لى حسن. قال، باختصار تخيل أنك تتفرج على التليفزيون، أو تسمع الراديو قبل النوم، ثم أردت أن تنام فماذا تفعل؟. تطفئ النور ثم تطفئ التليفزيون أو الراديو. تخيل أنك أطفأت النور فقط، وتركت التليفزيون أو الراديو فسيظل كل منهما يعمل. هكذا شلل النوم. تغمض عينيك ويسكن جسمك، لكن التليفزيون أو الراديو الذى فى رأسك يظل يعمل. وقال إنه كثيرا ما يشعر بذلك فجأة فينهض للحظة، فلا يجد حوله شيئا مما يسمعه أو يتحرك أمامه وهو نائم.

ضحك وضحكت وقال إنه مرض قديم فى العائلة منذ كانت فى بلاد الأناضول ثم أتت إلى مصر بعد استيلاء محمد على باشا على الحكم. . كانت العائلة فى الأناضول يموت أفرادها بسبب هذا المرض حتى فكر آخر من تبقى منهم أن يأتوا إلى مصر ويتزوجوا من أهلها فتتغير دماؤهم وينتهى المرض، اهتم بهم محمد على باشا جدا، وأقطعهم كثيرا من الأراضى التى ضاعت، ويحاول أخوة حسن عن طريق محامين كبار استعادتها من وزارة الأوقاف، ومن الذين اشتروها أو استأجروها من هذه الوزارة.

ضحك حسن من جديد وضحكت معه وهو يقول، لقد تزوج أجدادى من المصريين، لكن لم ينته المرض منهم. هل لو لم يأتوا من الأناضول لم يكن قد قدر لى الوجود على هذه الأرض؟. هل احتاج وجودى لهذه الرحلة حقا؟.

كنت أنا قد حدثته عن انشغالى الذى أقلقنى يومين كاملين قبل زيارة الطبيب و بعد لقائنا السابق، بمسألة الشقتين اللتين اشتريتهما. هتف مندهشا يسألنى هل اشتريت شقتين فعلا؟ قلت بأن هذه هى المشكلة العجيبة، فأنا فقط فكرت أشترى شقة خارج المدينة فى مكان جديد ونظيف زرته أكثر من مرة وتمنيت أن تكون لى شقة فيه، وعرفت أسعاره فوجدتها مرتفعة، ففكرت أبيع شقتى فى الإسكندرية، ومع مبلغ أوفره أشترى الشقة التى أريدها فى ذلك المكان النظيف، ثم فجأة فكرت أن أشترى شقتين، أتزوج فى واحدة، وأعطى الأخرى لابنى، ثم اكتشفت أن سعر شقة الإسكندرية، مع ما أدخره لن يفى إلا بشقة واحدة، وأننى وقد اشتريت شقتين صرت مديونا بمائة وخمسين ألف جنيه. تعبت جدا وأنا أفكر كيف يمكن أن أسدد هذا الدين الكبير، وماذا أفعل مع صاحب العمارة الذى حررت له شيكات مؤجلة بالمبلغ، ورأيته يسترد منى الشقة الثانية بعد أن قمت بتشطيبها أحسن تشطيب. قال لى إن هذه هى شروط العقد، وأن أسترد منك شقة أفضل من أن أسجنك. لقد تأخرت فى دفع الأقساط. أخذت أرجوه أن ينتظر حتى أبيع الشقة الثانية فى الإسكندرية، وتألمت جدا من هذه الورطة التى وضعت نفسى فيها، ولم يبرحنى الألم إلا بعد زيارة الطبيب، إذ اكتشفت بعد أن طمأننى على حالة قلبى أننى لم أشتر لا شقة ولا شقتين حتى الآن، وأننى لم أبع شقة الإسكندرية أصلا، وأنى لا أملك هناك شقة أخرى لأبيعها، ولم أحرر أى شيكات لصاحب العمارة ولم أوقع عقدا من أى نوع. الحكاية كلها فكرة تمكنت منى فصارت حقيقة وهى سراب. .

ضحكنا بصوت رائق، ولم ينته بعد ضحكنا ونحن ننزل السلم كما قلت حتى أن أكثر من ساكن فتح باب شقته ليرى مصدر ذلك الضحك العجيب.

* * *

لم تكن المسافة طويلة هذا المساء. تأثير النيتروماك الذى أخذته ولن أعود إليه جعل صدرى ينفتح للهواء، بل وشعرت بالهواء يجرى فى الشريان تحت القصبة الهوائية، والمكان الذى كان يختنق من قبل. جعلنى ذلك أسرع الخطى بشكل كبير، كان حسن يسرع معى لأنه فقط اشتاق إلى سعيدة. لم يضايقنا إلا أننا نمشى على الرصيف الأيمن الذى يقع فيه قسم البوليس. قال حسن لحظة وصلنا إلى القسم، ليتنا مشينا على الرصيف الآخر. لم يكن هناك تجمع بشرى أمام القسم ولا على الرصيف المقابل فالوقت لا يزال عصرا. لكننا وجدنا أمام باب القسم ورودا وأزهارا على الرصيف وعلى أسفلت الشارع مبعثرة مدهوسة بالأقدام. تضايقنا بحق وأمسك حسن بذراعى وهو يقول غير مصدق.

ـ هل يمكن؟

ـ يمكن جدا. شرطة بلدنا يا حسن.

ـ إذن قبضوا على بائع الورد. كيف بالله يقبض أحد على بائع للورد.

لم يكن حسن قد رآه وهو قادم إلى بيتى، ولم نكن رأيناه بعد

خروجنا من البيت، لكن قال حسن وهو يضحك «كما قلت لك، لقد أقلع عن بيع الورد بسرعة. لم نتوقع أبدا أن يقبض عليه». قلت:

ـ واضح فعلا أن موظفى الضرائب وشرطة المرافق يطاردونه.

ـ مسكين.

قال حسن ذلك بصوت خفيض، فكرت على نحو مباغت فى سؤال كان حسن قد سأله لى حين دخل إلى الشقة. لقد لاحظ أن الشقة رطبة وأن النوافذ مغلقة وسألنى لماذا لا أفتح النوافذ حقا، ولم أرد عليه. الآن تذكرت أن زوجتى هى التى كانت تفتح نوافذ الشقة كل صباح، وأننى لم أفعل ذلك إلا نادرا بعد موتها، فأنا عادة أصحو متأخرا، وابنى يصحو مبكرا لكنه يخرج إلى الجامعة بسرعة، وبنتى قبل أن تتزوج كانت مثل ابنى، وأنا حين أعود من العمل إلى الشقة تكون الشمس قد انتقلت خلف العمارة حيث مساقط النور ضعيفة لا تسمح لأشعة الشمس بالدخول إلى الغرفة. قررت أن أفتح النوافذ فى الأيام القادمة، إن لم يكن للشمس فللهواء. على مشارف الحديقة أدركت أننا لم نتكلم كثيرا منذ تجاوزنا قسم البوليس. رأى سعيدة من بعيد فهتف مبتهجًا.

ـ موجودة!

ابتسمت. دخلنا الحديقة. جلسنا على مقعد بعيد قليلا. المقعد المجاور للموقد مشغول باثنين من السائقين. رأتنا أم سعيدة فأقبلت علينا هاشة.

ـ حمد الله على السلامة .

ـ الله يسلمك .

قلنا معا . ثم قال حسن وحده :

ـ كيف حال كريمة؟

قالت المرأة

ـ قصدك سعيدة .

ـ أجل أجل . سعيدة .

ضحكت أنا من طريقة حسن الذى يتظاهر أنه لا يهتم بالبنت . قالت أم سعيدة :

ـ حلوة . قدامك تغسل الأكواب .

كانت سعيدة تغسل الأكواب فعلا عند حنفية الحديقة تساءل حسن .

ـ هى دائما تغسل الأكواب . ؟

ـ تساعدنى .

ـ سعيدة هذه المفروض تعيش فى قصر . لو فيه عدل يعنى فى الدنيا .

ـ يسمع منك ربنا يا أستاذ .

ـ لا أعرف كيف يطلق رجل فتاة مثل سعيدة . أكيد رجل حمار .

قالت المرأة بصوت عال قليلا .

ـ طلع من الشذاذ .

نظر إلىّ حسن مندهشا . قلت متسائلا :

ـ قصدك من الشواذ .

قالت :

ـ أجل . ضبطناه فى الغرفة مع واحد صاحبه . شفت حظها المايل .

قال حسن مغمضا عينيه .

ـ إن شاء الله سيكون حظها حلو . أحلى حظ . اعملى لنا اتنين شاى حلوين وابعثيهم مع سعيدة . .

ـ حاضر .

قالت المرأة ذلك ورجعت بسرعة إلى الموقد . نظر إلىّ حسن مبتسما وقال :

ـ شفت يا عم . جوزهاطلع خول . . .

ضحكت بصوت عال . قال :

ـ لكنه أنجب منها .

قلت :

ـ ممكن .

قال:

ـ المرأة تقول شذاذ بصوت عال، ولابد أن السائقين والباعة هنا جميعا يعرفون القصة، الولد الصغير الذى رأيناه من قبل يجرى حول أمه سيكبر، ستبذل أمه أقصى جهد فى تربيته ثم يعرف من الناس أن أباه كان شاذا فيقع فى مشكلة وتتعقد نفسه وحياته. يعنى أبوه ابن القحبة تسبب فى مشكلة ستنفجر فى مصر بعد عشرين سنة..

ضحكت، وضحك هو، ثم قال:

ـ لا أحد يفكر فى تأثير أفعاله بعد عشرين سنة. هذه هى المشكلة. انظر..

نظرت إلى حيث أشار فرأيت بائعة الحلوى تقف أمام زوجها الذى كان قابعا على الأرض هذه المرة، وتركله هى بقدمها وهو يتكوم على نفسه، وسائقو الميكروباصات يضحكون. هتف أحدهم.

ـ مالك اليوم يا جحش. لما إنت جبان هكذا لماذا كنت تضربها.؟

ضحك السائقون من جديد. هتفت سعيدة وهى تتقدم إلينا حاملة صينية الشاى.

ـ اضربيه فى سنانه الجبان. راجل وسخ يخاف ولا يختشى..

ابتعدت عن حسن قليلا لتضع سعيدة صينية الشاى على المقعد بيننا. لاحظت أن حسن يمسح ظهرها بعينيه حينما انحنت، لاحظت أن ظهرها بديع التقسيم حقا، ناعم انتقلت نعومته إلى الجلباب الأسود

فكدت أمشى بيدى عليه، لو لا أننى كنت ما زلت جافلا من كلامها لبائعة الحلوى. لم تعجبنى فجاجته. وقفت وتساءلت.

ـ أى خدمة تانية؟

بانت ابتسامتها ندية حقا، فبدأت أنسى ما قالته. تساءل حسن..

ـ أين ابنك؟

قالت فى سعادة طفولية.

ـ أخذه سواق معه يفسحه.

ـ ألا تخافين عليه؟

ـ ماذا سيحدث؟

قالت فى عدم اهتمام. يبدو أنها لم تفهم مايرمى إليه حسن. قال مصدقا على كلامها.

ـ صحيح.

ثم أردف.

ـ الأستاذ أحمد عنده مكتب خاص.

تساءلت سعيدة.

ـ الأستاذ أحمد محام؟

ضحك حسن وضحكت أنا. قال حسن:

ـ لا . هو فقط يحب أن يخلو إلى نفسه بعيدا عن البيت .

ـ يا بختك يا أستاذ .

قالت ذلك لى . فقال حسن بسرعة :

ـ ما رأيك أن تذهبى معه مرة تنظفى له المكتب؟

قالت بسرعة :

ـ لو أردت بنت تشتغل فى الخدمة فى البيوت أحضرها لك ، لكن أنا لا .

ـ ليست خدمة . هذا عمل مثل أى عمل . ألا تعرفين القراءة والكتابة؟

ـ لا .

ـ خسارة . الأستاذ أحمد يحب القراءة جدا . لو كنت تعرفين القراءة والكتابة كنت اشتغلت فى مكتبه ، تقرئين له الصحف وتلخصينها له . . الأستاذ أحمد مهتم جدا بما يحدث فى البلاد .

ضحكت وقالت لى :

ـ سياسى حضرتك؟

لم أرد . أعرف أنا ما يرمى إليه حسن ، ولا بد أنها عرفت أيضا . لا أحب أن يأخذنى سلما لبلوغ هدفه ، لكنى سكت . أدركت أن البنت التى تقف فى الفضاء مع أمها لن تطاوعه ، ربما تسمع هذا الكلام كل

يوم ، وستقاومه على الأقل الآن ، أنها قد تصاحب سائقا من الموقف أو بائعا ، ولكن شخصا مثلنا يبدو من وسط آخر أمر صعب ، وبالأحرى مخيف ، على الأقل لبعض الوقت . قالت سعيدة لى . .

ـ يا خسارة . لو كنت أعرف القراءة والكتابة كنت اشتغلت عندك يا أستاذ .

تركتنا وعادت إلى أمها . قال حسن فى أسف :

ـ لم تفلح الحيلة .

قلت بهدوء :

ـ لا تدخلنى فى المسألة يا حسن .

قال ضاحكا :

ـ هى على أى حال لم توافق .

وسكتنا .

* * *

كان المساء يتقدم . خيم صمت غريب على المكان كله . حتى أنا وحسن سكتنا كثيرا . كان هناك أكثر من شخص فى الحديقة على غير العادة ، كل منهم يجلس منفردا ، حتى لو تجاور اثنان كانا لا يتحدثان . سعيدة جلست معظم الوقت تختلس النظر إلينا من بعيد . طلبنا كوبين من القهوة . لم يتحدث حسن إلى سعيدة هذه المرة وهى تقدمهما إلينا .

من آخر الحديقة تقدم شاب صغير لم نكن نراه يسبقة كلب، جرو، متصل بسلسلة رفيعة فى يد الشاب وبطوق جلدى حول عنقه. كان الشاب متجها إلى الخروج من الحديقة لكن حسن ناداه:

- دقيقة واحدة من فضلك.

تقدم الشاب الصغير نحونا. سأله حسن:

- هل تبيع هذا الكلب؟

قبل أن يجيب الشاب قال حسن لى:

- دوبر مان. كلب حراسة ممتاز. أحسن كلاب الحراسة. يصلح لحراسة الحديقة التى سأقيمها على السطح..

تردد الشاب لحظة ثم قال:

- أنا اشتريته الأسبوع الماضى. سوف أربيه لأبيعه بسعر كبير..

قال حسن:

- أنت إذن تتاجر فى الكلاب..

- لا. هواية فقط.

- بكم اشتريته؟

- بثلاثمائة جنيه

- يستحق. لكن هل يتعاون معك؟ أقصد هل يفهمك أم ما زال متعلقا بصاحبه؟

أظن أنه مازال متعلقا بصاحبه. على فكرة يمكن أن يهرب منك ويعود إليه.

إبتسم الشاب وقال:

- هرب منى فى اليوم التالى لشرائه فعلا وعاد إلى صاحبه. ذهبت وأعدته.

- لو اشتريت كلب لولو تبيعه أسرع. النسوان تحب اللولو.

قال الشاب مبتسما:

- ممكن.

كان الكلب يدور حول ساق الشاب، والشاب يعيده إلى جواره، ثم قام بطى السلسلة حول كفه أكثر من مرة حتى لا يجد الكلب فرصة للدوران. قال لى حسن:

- على فكرة إنت لازم تشترى كلب.

ابتسمت. كدت أضحك بصوت عال. عاد يقول:

- أحسن حاجة فى الدنيا الكلاب. الكلب تقول له تعال يأتى، اذهب يذهب. هل هناك فى الدنيا أحد يطيعك على هذا النحو.؟ ولا حتى الزوجة ولا الأولاد يفعلون هذا - ثم سأل الشاب الصغير - صح..؟

أجاب الشاب:

- صح.

قال حسن:

ـ لكن هل عندك بوكسر أو بلاك جاكيت بلجيكى أو ألمانى؟

ـ موجود كثير لكن عند أصحابى. ثم أنك تستطيع الذهاب إلى السوق.

قال حسن:

ـ أنا كنت أظن أن لديك أنواعا أخرى تريد بيعها. السوق أنا أعرفه لكن أكسل عن الذهاب..

ازداد اندهاشى من هذا الحديث المفاجئ عن الكلاب. هذا شيء جديد اكتشفته فى حسن. معرفته بالكلاب وأنواعها. قال حسن:

ـ تعرف. أنا أبحث عن كلب نسيت نوعه. طويل وقصير.

ضحكت وارتبك الشاب. قال حسن:

ـ أقصد ظهره طويل بشكل لافت وأرجله قصيرة بشكل لافت أيضا. هذا كلب طيب جدا. أطيب الكلاب. هل تعرف نوعه..؟

ـ أعرفه. رأيته كثيرا، لكن لا أذكر النوع. لو ذهبت حضرتك إلى السوق ستجد كل الأنواع.

قال حسن لى:

ـ لازم فعلا نروح السوق مرة ـ ثم قال للشاب الصغير ـ هل تأتى إلى هنا كثيرا..؟

ـ لا.

ـ طيب هل معك كارت.؟

تساءل الشاب فى دهشة:

ـ كارت. لماذا؟

ـ لنتصل بك فى أى وقت نحتاج فيه إلى كلب. ربما لا نذهب إلى السوق.

هز الشاب الصغير رأسه مبتسما ومندهشا..

قال حسن:

ـ إنت لازم تشوف له كلبة تونسه. كلب وحيد فى البيت أمر صعب. أو على الأقل يكون جارك عنده كلبة.

ابتسم الشاب الصغير أكثر. بدأ الكلب يهز ذيلة. كانت هناك كلبة سارحة فى الشارع أمام الحديقة تظهر من خلف أسياخ السور الحديدى خلفنا. أشار حسن إلى الكلب وقال ضاحكا..

ـ شفت هز ذيله سعيدا.

قال الشاب:

ـ شاف كلبة ماشية فى الشارع..

قال حسن:

ـ لا . هو مبسوط منك . واضح إنك نجحت فى ترويضه . حدث ذلك فى أسبوع كما تقول، إذن أنت شاطر فى تربية الكلاب .

بدا الشاب الصغير سعيدا، لكن حسن لم يتكلم مرة أخرى . فتساءل الشاب الصغير :

ـ أى خدمة؟

أجاب حسن :

ـ لا . لكن خسارة أنك لا تحمل كارتا . .

ابتسم الشاب وانصرف، لكنه لم يخرج من الحديقة . اتجه إلى المقعد المجاور للموقد وجلس جوار سعيدة . بدأ يتكلم معها ولانسمعه، لكن نراها تبتسم . . شيئا فشيئا تسلل الظلام أكثر . أضىء الميدان لكن كالعادة لم تضئ الحديقة، فقط عمود الإنارة الوحيد شحيح الضوء قريبا من الباب . . قلت لحسن . .

ـ نعود الآن؟

وقف وقال :

ـ نعود .

وقبل أن نتقدم خطوة قال فى حسم :

ـ الواحد فعلا لازم يشترى كلب .

[٦]

كيف اكتشفت علاقة دنيا بفادية؟

أو

لماذا لم يبق غير سعيدة...؟

ـ هل الانتحار صعب؟

هكذا سـألتنى دنيا فـجـأة بعـد أن دخلت سيـارتى وأشـعلت أول سيـجـارة. كنت أهملت الاتصـال بهـا فى الأيام الأخـيـرة، وهى من عـادتهـا ألا تتـصل. لـم تعـاتبنى على هذا الإهمـال ولم تسـألنى عن السبب. كنت أنا أنوى أن أحدثهـا هذه المرة عن صديقى حسن، وعن رغبته فى شراء كلب يتركه فى الحديقة غير الموجودة، كما أننى كنت أريد أن أفسر لها انقطاعى عن الاتصال، وكيف كان السبب هو أقراص النيتروماك ريتارد القليلة التى أخذتها، وكيف أننى خفت أجمع بينها وبين الفياجرا فأموت، لذلك حاولت الابتعاد عنها أكبر وقت. ثم أننى لم أتأخر عن الموعد إلا أسبوعا، اشتقت فيه إليها كثيرا، وأنها ستعلم ذلك حـين نصـل إلى الشـقـة، لكن دنيـا أربكتنى بالسـؤال المبـاغت. أجبت:

ـ الانتحار سهل، لكن المسافة بين الرغبة فى الانتحار والانتحار نفسه هى الصعبة جدا.

قالت بحدة:

ـ لكن الذين انتحروا نجحوا فى قطعها بسهولة .

ارتبكت أكثر . ربت على فخذها القريب منى وقلت بهدوء :

ـ أنت لا تعرفين ، ولا أنا ولا أحد يعرف . لم يسأل أحد المنتحرين بعد انتحارهم كيف قطعوا هذه المسافة . كل ما نعرفه هى بعض أسباب الانتحار .

قالت وهى تنفث دخان سيجارتها بقوة :

ـ لا تصعب المسألة .

لاحظت أنها أطفأت سيجارتها قبل أن تنتهى منها ، وأشعلت سيجارة أخرى ، ولاحظت هالات سوداء أسفل عينيها .

ـ يبدو أنك تسهرين كثيرا هذه الأيام .

لم ترد على السؤال . حدثتنى عن فادية صديقتها ، وكيف تشاجرا مشاجرة عنيفة . ففادية التى لا تحب زوجها لا تستطيع أن تطلب منه الطلاق ، رغم أن ذلك هو الحل الوحيد لحالتهما ، خاصة بعد إصابتها ببكتريا عصوية فى الشرج ، ولا أحد يعرف ماذا قد يكون أصابها غير ذلك . تحتاج فادية لأن تكون امرأة حقيقية . قلت لها ذلك فغضبت منى . هكذا تقول دنيا . اتهمتنى بالجهل ، وبأننى لا أعرف شيئا عن هذا المجتمع الظالم الذى لا يعطى المطلقة فرصة الاطمئنان بعد الطلاق . المطلقة لا تستطيع أن تعيش ككائن طبيعى ممكن أن ينجح أو يفشل . لكنى أوضحت لها ، تستمر دنيا فى الحديث ، أن المرأة هى المسؤلة عن

ذلك أكثر من المجتمع ، فهى لا يجب أن تضع هذا المجتمع فى رأسها ، فالمجتمع لم يتدخل ويحميها من الطلاق . قلت :

ـ وهل يكفى هذا سببا للشجار؟

قالت بحدة :

ـ طبعا لا . قلت لها أن تمارس الجنس كحق طبيعى لها ، أن تختار من الرجال ما تشاء ، أن تكف عن نظرتها لهم باعتبارهم ذئاب ، فهذا يجعلها تنفر منهم ، ويزيد توترها ، شرحت لها كيف يكون إهمال غريزة مثل الجنس خيبة كبيرة ، ويسبب أمراضا نفسية وعقلية وجسمية أيضا ، قلت لها انظرى إلى العوانس وكيف هن متوترات دائما ، مختلات فى الغالب ، فهن من ناحية لا يملكن إرادة الراهبات ، ومن ناحية يأملن فى الزواج الذى لا يجىء ، فيضربن أسوارا من حديد حول بركان ، ويتصورن هكذا أنهن أخمدن البركان ، والحقيقة أنه يمور بالنار ، فينفجر فى السلوك الطائش والصوت العالى وعدم التركيز وربما الحقد أيضا ، تذبل أجسادهن وأحيانا تتشقق مثل الأرض البور . قلت لها إننى أعرف زميلات لى فى العمل عوانس هن الأكثر إثارة للمشاكل فى كل شىء وفى كل وقت . مدرسات لكن يعاملن التلاميذ بقسوة ، يلقين بكراريس الأولاد على الأرض ، يأكلن عليها الطعمية وهن يصححن الدروس ، والتى لا تعجبها إجابة التلميذ تقطع الصفحة وأحيانا تمزق الكراسة كلها . أقسمت لها أننى رأيت واحدة منهن تأكل «صوبع طباشير» فى الحقيقة كانت تمص فيه وهى شاردة ولما رأتنى ألاحظها أكلته .

فى البداية استمعت إليها مهتما، ثم رحت أضحك، ولما انتهت قلت:

ـ ولا تريدين أن تتشاجر معك. لقد سودتى حياتها يا دنيا.

كانت قد انتهت من سيجارتها الثانية، أشعلت الثالثة وصمتت لحظات ثم قالت بهدوء:

ـ سنأخذ فادية فى الطريق.

اندهشت. سألت:

ـ فادية؟ لماذا؟

قالت:

ـ عندك مانع؟

ترددت قليلا ثم قلت:

ـ لا.

بدأت أخاف. ماذا يحدث لو طلبا منى النوم معهما معا؟ هل أستطيع. ؟ فكرت بسرعة أن ألغى المشوار كله. أن أقترح عليها بعد أن نأخذ فادية الذهاب إلى السينما للفرجة على فيلم «الساعات». لا أعرف لماذا فكرت فى هذا الفيلم، ربما لأنه جمع بين ثلاث نجمات كبيرات، نيكول كيدمان وجوليان مور وميرل ستريب، وليس أبدا لأنه عن الأيام الأخيرة لفرجينيا وولف، ولا قارئتها فى الخمسينيات، ولا

الناشرة التى تحمل اسمها وتنشر أعمال ابن القارئة فى نهاية التسعينات. ثم أنه فيلم يشجع على الانتحار فلماذا قفز حقا إلى ذهنى؟ ربما لأنها سألتنى عن الانتحار من قبل. لا يمكن أن يكون اختيارى للفيلم لأننى أحب فرجينيا وولف، قرأت لها رواية واحدة ووجدتها صعبة، لكن ربما أيضا لأن السحاق فيه يحتل مساحة أساسية، فالثلاث نساء سحاقيات، والرقابة أفسدت الفيلم بقطعها المشاهد السحاقية، فجوليان مور المولعة بفرجينيا وولف بعد انتحارها بثلاثين سنة سحاقية رغم أنها تعيش مع زوج طيب، والرقابة قطعت المشهد الذى يوضح علاقتها بجارتها المصابة بالسرطان، وحين نظرت إلى ابنها الصغير ونهرته قائلة ماذا تريد What do you want? كان قد رآها فى المشهد السحاقى الذى قطعته الرقابة، وميريل ستريب التى تحمل اسم الكاتبة الشهيرة وتنشر أعمال ابن جوليان مور، الكاتب والشاعر، الذى قام بدوره إدهاريس، ميريل ستريب أيضا سحاقية، تعيش مع صديقة زنجية لم نفهم أبدا لماذا تعيش معها بسبب الرقابة، وإدهاريس مصاب بالإيدز، وحين جاء صديقه أستاذ الجامعة يزور ميريل ستريب ويسألها عنه، سألته عن حياته فقال لها إنه على علاقة بتلميذة فى الجامعة والحقيقة أنه يقصد تلميذ Student لكن الرقابة الغبية جعلت الترجمة تلميذة وموهت على المتفرجين المصريين التعساء، رغم ذلك وصلنى المعنى العميق للفيلم، وحزنت كثيرا على هذه الشخوص المعذبة على مدار القرن الماضى كله. يا إلهى القرن الماضى الذى لم تمض عليه غير خمس سنوات، لقد كانت السينما خالية من المتفرجين، لم يشاركنى

فيها غير فتى وفتاة رأيتهما يتشاجران فى الاستراحة فى الكافيتريا، الفتاة تلوم الفتى على اختيار هذا الفيلم المعقد غير المفهوم، رأيت الفتى يبدو عاطفيا جدا، شاحب الوجه قليل الكلام، مشروع مثقف ضل طريقه فى علاقته النسائية. ذكرنى برغبتى القديمة زمان أن أكون مثقفا، كاتبا، برغبة حسن القديمة أن يكون شاعرا، كلانا لم يمش وراء رغبته. تضايقت من الفتاة التى بدت لى سطحية التفكير، ثم أشفقت عليها، وخرجت من الفيلم راغبا أن أعود إليه مرة أخرى، لكنى لم أعد. خفت أن أنتحر. أجل. الانتحار هو الذى ذكرنى بالفيلم، وربما، ياإلهى، فكرة غائمة فى روحى تكاد تعلن أن دنيا وفادية سحاقيتان، لكن هل يمكن لسحاقية أن تفعل ما تفعله دنيا معى؟. ربما تفكر دنيا فى الانتحار لأنها خانت سحاقيتها، لم تعد سحاقية سوية. لكن هل هذا ممكن؟ من السوى إذن ومن الشاذ؟ وهل كان أبطال الفيلم شواذا حقا أم أنهم كانوا أصحاب طاقات أكبر من قدرة الحياة على استيعابها.؟ الحياة هى الشاذة حولهم، لابد.

ـ أين ذهبت؟

سألتنى دنيا التى لابد أنها لاحظت شرودى العميق ثم أردفت.

ـ خذ بالك من الطريق.

لم أرد. فكرت فى فيلم آخر أصحبهما إليه. كانت فادية قد ظهرت من بعيد.

* * *

فى اللحظات القليلة التى خفضت فيها سرعة السيارة لأتوقف أمام فادية فكرت هل يمكن أن أنجو منهما اليوم. هل يمكن أن تباغتهما الدورة الشهرية معا، دنيا متوترة، أجل، السجائر التى دخنتها والطريقة التى تتكلم بها وسؤالها عن الانتحار، كل ذلك يؤكد توترها. هناك فرصة أن تباغتها الدورة الآن، إن لم تكن فى ذروتها فعلا، ويكون ذلك أحد أسباب توترها. هل يساعدنى الله وتباغت الدورة فادية؟ أو تكون فى قمتها أيضا و السبب لتوترها الذى لابد دفعها للشجار مع دنيا. لو حدث ذلك سيتم إنقاذى بالدم. هذا شرف لم يحدث لأحد من قبل فى البلاد.

توقفت بالسيارة وصرخ فى رأسى سؤال، ما الذى سيحدث لو اصطلحا بى؟ أى شرك وقعت فيه؟. بسرعة فكرت أن أعيدهما إلى فلكهما الخاص، السحاق. يمكن ببعض الحيلة أن أجرهما إلى الاعتراف، ومن ثم أتفرج عليهما معا، أذكرهما بأن ما اختارتاه من قبل هو الصحيح، وأن ما يعانيانه هو بسبب محاولتهما الخروج عن الفلك الذى اختارتاه من قبل، وإذا لم يظهر لى أبدا أنهما سحاقيتان، وقد صرت على يقين من ذلك، إذا أصرتا على الكذب حتى النهاية، أزيد الهوة بينهما. أسأل فادية لماذا تتشاجر مع صديقة عمرها كما تقول دنيا عنها، ستبدأ كلتاهما فى شرح وجهة نظرها، ألوم دنيا على قسوتها فى الحكم على العوانس والمطلقات، أتهم فادية بفقدان الثقة فى نفسها بمعارضتها لكلام دنيا، سيدخلان فى معركة حقيقية، ثم أقترح أن نغادر الشقة جميعا لنتعشى فى مكان هادئ، وتنتهى الليلة بسلام.

ركبت فادية السيارة فى المقعد الخلفى وأشعلت سيجارة بسرعة . بدا أنها لا تريد أن تتكلم مع أحد . قالت دنيا بحدة :

ـ فادية اسمعى . أنت طلبتى أن تأتى معنا . خلى الليلة تمر على خير . عايزة تشاركينا اتفضلى لكن فرجة علينا لأ . .

هدمت دنيا كل نواياى فأغمضت عينى للحظة عدت بعدها للقيادة منتبها ويائسا . . لم ترد فادية على دنيا وراحت تنفث سيجارتها بغيظ خفيف . كنت أرى وجهها فى المرآه أمامى . فكرت أنهما حقا قررا الصلح بى . لقد وجهت إليها دنيا دعوة صريحة للجنس الجماعى . ما الذى يمنع أن تكون كل الفحوص الطبية خاطئة الليلة فأموت . قالت فادية :

ـ أنا أتيت لشىء آخر .

تنهدت . قلت :

ـ خير يا فادية .

قالت بحدة :

ـ ما تفعلانه فى الحقيقة خطأ كبير . .

صرخت دنيا فأفزعتنى حقا .

ـ شفت؟ من أولها ستعطينا دروسا .

هتفت ضاحكا :

ـ طيب طيب . انتظرا حتى نصل إلى الشقة وتشاجرا هناك . أريد أن أنتبه إلى الطريق .

أشعلت فادية سيجارتها الثانية ، لم أعد أتذكر كم سيجارة أشعلتها دنيا . لكن دنيا بدأت ترتعش غير قادرة على التحكم فى عود الثقاب ، فأخذت السيجارة منها ، أشعلتها وأعدتها إليها . لا أعرف لماذا فكرت من جديد فى فيلم الساعات . قلت لنفسى «ليزبيان»خرج صوتى وسمعتاه . أدركت الكارثة التى فعلتها فقلت بسرعة :

ـ هذا عنوان فيلم جنسى رأيته على قناة فوكس . دائما هناك أفلام عن ذلك .

رأيتهما يصوبان نحوى نظرات دهشة وغضب مكتوم فواصلت الحديث .

ـ يبدو أن هذا صار شيئا عاديا فى الغرب . أكيد صار كذلك مادامت الشاشات المحترمة تنقله إلينا .

لم ترد أى منهما . أدركت أننى عبرت «المطب» بسلام ، الذى أمامى فى الطريق والذى فعلته بالكلمة ، ساد صمت طويل حتى وصلنا إلى الشقة . أعددت نفسى للمعركة الحقيقية . ماأن دخلنا وجلسنا فى الصالون حتى قلت :

ـ آسف . الشقة وسخة جدا . نسيت اتصل بمكتب الخدمات يرسل إلىّ امرأة لتنظيفها .

نظرتا إلىّ مليا . قالت فادية ساخرة :

ـ شكلك يقول إنك تريدنا أن نفعل ذلك .

ـ أبدا والله . أنا أتكلم بشكل عادى . الشقة فعلا وسخة وأنا نسيت . فى الحقيقة لا آتى كثيرا إلى هنا .

قالت فادية بخبث :

ـ ألا تأتى مع دنيا . ؟

ـ ليس كثيرا . أليس كذلك يا دنيا؟

ـ هى تعرف كل شىء .

قالت ذلك بلا مبالاة وهى تشير إلى فادية التى قالت بحدة :

ـ أنا لا أعرف أى شىء . ولم آت إلى هنا أبدا .

اندهشت من إحساسها بالاتهام . تأكد لى أنها غير سوية أكثر مما تأكد لى من قبل .

قالت دنيا فى سخرية أكثر :

ـ لماذا . عذراء حضرتك؟

احتدت فادية :

ـ تقريبا . والعذرية ليست قطعة جلد . العذرية سلوك . .

قالت دنيا ببرود حسدتها عليه حتى اندهشت من سؤالها عن الانتحار .

ـ أنت حرة . لكن عندما يأتى يوم تذبلين فيه ، ويتشقق جلدك من قلة الرى ، ويصيبك جرب من قلة الاستحمام ، سوف تتذكرين أنى كنت على حق .

ارتبكت فادية جدا وقالت باستنكار :

ـ ما هذا الكلام؟ ما هذا المستوى؟ ما هذا الكلام البائخ الذى تقولينه؟

قلت فى نفسى الحمد لله . اشتعلت المعركة .

ـ بهدوء لو سمحتما . اسمعى يا فادية ، بصراحة دنيا عندها حق .

ـ ماذا تقصد؟

ـ يعنى العلاقة بينكما واضحة جدا . كل منكما تعرف كل شىء عن الأخرى ، فلماذا المداراة ، ولماذا تلومينها على سلوكها معى بل .

لم أكمل . أكملت فادية :

ـ بل أفعل مثلها ألا تقصد ذلك؟

قلت بهدوء :

ـ أنا لا أقصد أى شىء . لا تلوميها وكفى .

سكتنا لحظات . أشعلت كل منهما سيجارة وقالت فادية بهدوء :

ـ هى حرة . لكن أنا لا أحب الجنس .

قالت دنيا ساخرة :

ـ تحبين الفرجة؟

ـ أجل .

ـ أنت مريضة وتحتاجين إلى علاج .

ـ ربما .

ـ علاجك كان عندى .

ـ أنا قطعت علاقتى بك

ـ أنا أيضا قطعتها بك . أنا لا يمكن أكون شاذة . كفاية سنة ليزبيان .

رغم أنى توقعت ذلك فقد كان مفاجأة حقيقية . قالت فادية وهى تبتسم .

ـ لم يكن شذوذا . كان هزارا .

ـ هزار على اللحم .

فى الحقيقة بدت لى دنيا متجردة من الرحمة . لقد بكت فادية وهى تتكلم :

ـ أنا كرهت كل الرجال . كل رجل أراه أفكر أنه سيستعملنى كزوجى

أطرقت برأسها وبدا أن حزنها عميق حقا . اقتربت منها وأحطت كتفها بذراعى وقلت :

ـ معك حق . بعد قرن كامل من الصراخ بتحرير المرأة عاد كل شىء إلى العصور الوسطى .

ساد صمت راحت فيه فادية تقضم أظافرها بينما تتكلم :

ـ نفسى أحس أنى بنى آدم .

ـ هذا أسهل شىء يفعله رجل محترم .

قلت ذلك ومددت يدى أمسك بيدها فوقفت . جذبتها بهدوء لتجلس على حجرى فجلست .

ـ تسمحى لى أن أكون أبا فقط هذه المرة .

نظرت إلينا دنيا ساخرة ، ابتسمت مستهزئة وقالت :

ـ كانت هناك مرة سابقة إذن !

قلت غير متردد .

ـ فعلا . جاءت فادية معى مرة لكنا لم نفعل شيئا . كانت فى حاجة إلى حنان الأب أكثر من أى شىء . وهذا ما جرى .

لم أعد راغبا فى الهرب منهما . تبددت خطتى وتبخرت أفكارى عن النجاة . بدأت أخلع عنها البلوفر الذى ترتديه فوق البلوز ، ثم رحت أفك أزرار البلوز فإذا بدنيا تقف بعيدا عنا وتشعل سيجارة جديدة من سيجارتها السابقة . بدا لى أنها تريدنى أن أتقدم حتى تتساوى فادية معها ولا تزايد عليها فيما بعد . وقفت وأوقفت فادية معى ثم حملتها

إلى الغرفة الأخرى . نسيت دنيا تماما وأنا أمدد فادية فوق السرير وأفك أزرار بنطلونها .

ـ لأ كفاية لحد هنا .

ـ ألا تريدين بأن تشعرى بآدميتك . اتركينى أحقق لك ذلك .

أغمضت عينيها ورحت أمشى بأصابعى على جسمها ، لم أترك مكانا إلا ومشيت عليه بأصابعى بطريقة تشعل فيها النار شيئا فشيئا . بدأ الجسد المهان يتشرب النشوة التى تتسرب من أصابعى على مهل ، فأغمضت عينيها وراحت تتنهد بصوت خفيض جدا ، فبدأت أقبل وجنتيها بهدوء ، وأمشى بشفتى على عنقها وأذنيها وذقنها ، ثم أطبقت على شفتيها فبدأت ترتعش جوارى وأنا أكاد أسكب فوقها ماء هادرا ملتهبا مذابا ، وأجاهد أن لا أبلغ غاية نشوتى فتركت ذهنى يسرح فى الحديقة ، فى الضابط الذي كان يجلس وحيدا ويبكى ليلا ، حديث حسن مع الشاب الصغير صاحب الكلب ، سعيدة التى رغبها حسن بسرعة ولم يبد فى نهاية المرة الأخيرة أنه متلهف عليها ، الورد المداس بالأقدام أمام قسم البوليس ، أحاديث حسن عن الطب البديل والعلاج بالنباتات وبالماء ، جهاز الضغط الذى يحرص على وجوده جواره فى حجرته ، وكيف يقول حسن عن الكلب إنه الوحيد الذى يطيعك بلا نقاش ، أحسست بنار جسمها تحتى تصل إلى غايتها قلت لها بحنان .

ـ الآن؟

ـ لا .

ـ الآن أفضل .

ـ لا . استمر هكذا

ـ أنا غير قادر على الاستمرار هكذا .

ـ أرجوك . أنا لا أحتاج إلا هذا اليوم . أحتاجه كثيرا جدا جدا جدا . أحتاجه بعدد المرات التى لم تحدث من قبل أبدا . بعدد المرات التى ألقى فيها زوجى بى كالبهيمة على بطنى ليفرغ فىّ سمومه .

أيقظتنى وأنا على باب البهجة ، أدركت أنها شاذة لا محالة ، هتفت فجأة :

ـ أين دنيا؟

تأملتنى بدهشة ثم قالت :

ـ فى الصالون .

هتفت أناديها لكنها لم ترد . فكرت على نحو مباغت أنها قد تكون انتحرت فى الصالون . نهضت بسرعة ومشيت عاريا . لم أجد دنيا فى الصالون ولا فى المطبخ أو الحمام وجدت البلكونة مغلقة كما كانت . عدت إلى فادية مندهشا . قلت :

ـ غير موجودة .

ـ لكننا لم نسمعها تخرج . لم نسمع وقع قدميها ولا صوت الباب يفتح أو يغلق . خلاص . هى حرة .

كانت فادية جالسة الآن، أحسست بارتباك كبير. رأتنى مرتبكا فقالت:

ـ تحب أطلبها لك على الموبايل.

ـ يا ليت.

قامت فادية إلى الصالون حيث تركت الموبايل فى حقيبتها. كنت أعرف أن اللحظات القليلة التى تركتها فيها، والمسافة القصيرة بين الغرفتين كافية لأن يعود جسم فادية إلى برودته، أنا بدورى فتر حماسى تماما. ذهبت إلى دورة المياه لأفرغ مثانتى وأتخلص من الآلام، ثم عدت لأجد فادية قد ارتدت ملابسها. كيف فاتنى حقا أن أنظر إليها وهى تمشى عارية؟ قالت:

ـ الموبايل مغلق. لا بد أنها أغلقته. دنيا غيورة جدا. لم تتحمل أن تعاملنى بهذا الكرم.

قلت:

ـ لكنها التى طلبت منى أن أصحبك إلى هنا.

ـ هى هكذا. تفعل الشىء ثم تندم.

سكتنا قليلا حتى قلت:

ـ دنيا فى أزمة كبيرة يا فادية. أزمة لا أعرفها.

قالت فى حسم:

ـ دنيا صاحبتى من عشر سنين. أكثر من أختى. ولن يحدث شىء.

فى السيارة ونحن عائدان كنت كارها لفادية أشد الكره. لم يخفف كرهى إلا أن دنيا هى التى عرفتنى بها. ما الذى سيحدث لى حقا إذا افتقدت دنيا، بسبب هذه الشاذة المريضة المحطمة. ليست هناك امرأة فى كل هذا العالم توافق أن يغازل رجلها امرأة أخرى فما بالك أن ينام معها.. لقد أضعت دنيا من أجل فادية الضائعة لا محالة. أضعت دنيا بيضاء مفتوحة على بهجة وردية من أجل دنيا سوداء مفتوحة على ظلام. ماشأنى أنا بظروف فادية التى لم أصنعها. الآن ليس أمامى إلا عمل واحد. استعادة دنيا بأى ثمن وبأى طريقة. ليتنى اعتذرت لدنيا اليوم وذهبت إلى المعمل لإجراء التحاليل التى طلبها الطبيب والتى نصحنى بها حسن من قبل. تحليل دم ووظائف كبد ووظائف كلى. عطلنى قرارى بتغيير الطبيب الذى لم يرشدنى إلى ضرورة عدم استخدام الفياجرا مع النيتروماك. كاد الطبيب أن يقتلنى، أنقذنى حسن وها أنذا قتلت نفسى. أجل. ضياع دنيا هو الموت بعينه ولن تنقذنى فادية أبدا. لن تبقى إلا سعيدة بنت بائعة الشاى. أى حضيض. فى مثل هذه الحالات لا ينقذك إلا العبث. ضحكت فاندهشت فادية جدا، كانت من قبل مسترية من صمتى.

سألتها:

ـ هل تحبين القراءة؟

ـ جدا.

قالت ذلك بحماس يرضينى .

ـ هل قرأت مسرحية بيجماليون؟

تساءلت باستنكار :

ـ من هذا . مقاتل أم زعيم؟

ابتسمت . قلت :

ـ طيب . هل شاهدت فيلم سيدتى الجميلة؟

تساءلت :

ـ تقصد مسرحية فؤاد المهندس وشويكار .

ـ أقصد فيلم ريكس هاريسون وأودرى هيبورن .

قالت فى دهشة :

ـ من هؤلاء؟ لا أعرف ممثلين بهذه الأسماء . أنت ناسى إنى أصغر منك بثلاثين سنة .

سكت . لا فائدة حتى فى العبث . لكنى عدت أسألها .

ـ المثل الشعبى القائل لبس البوصة تبقى عروسة هل يتحقق فى الحياة؟

قالت بحماس :

ـ لأ طبعا .

ـ لماذا؟

ـ لأن أبى كان دائما يردد مثلا آخر يقول كل إناء ينضح بما فيه . كان يقوله عن أى شخص يضايقه . أنا أتذكر هذا المثل دائما كلما رأيت زوجى .

قلت يائسا :

ـ صحيح .

اندفعت تقول :

ـ لعلمك الأمثال الشعبية كلها ضد بعضها . تحس إنها من تأليف الحكومة . يوم تطلع مثل يفرح الناس ويوم تطلع مثل يغمهم . على هذا النحو منذ آلاف السنين .

قلت ناهيا النقاش :

ـ حكومة وسخة ومعرصة . .

انتبهت بتركيز زائد على الطريق . كنا قد صرنا بالليل والأضواء غير كافية لإنارة الشارع . قررت أن لا أتحدث مع أحد بقية الليل . ولا حتى حسن إذا طلبنى . كان هناك زحام مفاجئ من السيارات والناس . لقد سقط مطر ونحن داخل الشقة ، توحلت الأرض وتباطأت السيارات وبعضها تعطل ، تكدس المارة على الأرصفة بعيدا عن الشوارع الزلقة فلم تتسع لهم الأرصفة ، أغلقت كثير من المحال أبوابها ، ودق جرس الموبايل الذى تحمله فادية فارتعشت أنا . نظرت فادية إلى شاشة المحمول وتساءلت :

ـ دنيا. أرد عليها؟

ـ بسرعة الله يخليك.

قلت ذلك بلهفة كبيرة. ردت فادية.

ـ ألو.

وجمت فى ذهول. قالت:

ـ هذا زوج دنيا يبكى.

ثم كلمته.

ـ ماذا جرى. ؟

سقط الموبايل من يدها. فقدت وعيها فمال رأسها ناحيتى وكادت تقع علىّ فتوقفت بصعوبة وسط الطريق. .

[٧]

كيف توقفت الساعات؟

أو

لماذا لم نسمع فى السرادق إلا آيات الجحيم؟

ـ لماذا لم ترد على تليفوناتي طوال الليل أمس؟

سألني حسن وهو ينظر إليّ مندهشا ثم أضاف :

ـ هل حدث شيء؟ أين ذهبت اليوم؟

ـ لم أخرج من البيت .

ـ لكنك ترتدي ملابس الخروج!

نظرت إلى نفسي في لا مبالاة . أدركت أني لم أغير ملابسي منذ أمس . نمت بها . كيف حدث حقا أنني قد نمت؟ وهل نمت؟ إنني أنسى كل شيء . لابد أنني نمت وصحوت ، لابد أنني رأيت كوابيس ، لابد أنني فكرت كثيرا وتألمت كثيرا وتحيرت كثيرا . لقد لمعت دنيا في حياتي كالشهاب واحترقت . هذا كل ما أستطيع قوله .

ـ لماذا كنت تتصل بي؟

سألته بعد أن جلس ولازلت أنا واقفا . لكنه سألني :

ـ هل ساعتك تتحرك؟

نظرت إليه بدهشة. كيف حقا نسيت طريقته فى الكلام. أسئلته الصعبة. إننى أتذكر حسن كشىء غائم مر ذات مرة فى حياتى. لابد أننا وقفنا معا كثيرا فى مكان ما، أو جلسنا أو تحدثنا، هل هو الذى أقابله دائما على الكورنيش أم شخص آخر يزورنى فى البيت على غير موعد؟ اندهشت جدا من فكرة أننى أعرفه ولا أكاد أتعرف عليه، لكنه أعادنى إلى الحقيقة، إنه صديق عمر طويل، لقد هتف:

ـ ماذا جرى لك يا أحمد. تنظر إلىّ كأنك لا تعرفنى؟

جلست وقلت حائرا:

ـ أنا لست هنا.

ابتسم وأشاح بيده فى استهتار وقال:

ـ بسيطة. المهم أجب على سؤالى. هل ساعتك تتحرك؟

ـ طبعا.

ـ انظر إليها.

نظرت إلى الساعة. كانت تقترب من الخامسة. قلت:

ـ الخامسة إلا عشر دقائق.

قال:

ـ الحمد لله هناك ساعة تعمل.

نظرت إليه بدهشة. لكنه استطرد.

ـ أمس صحوت من النوم فوجدت جميع ساعات البيت متوقفة. أنت تعرف أنى أضع ساعة حائط فى كل غرفة. كلها رأيتها متوقفة، وساعة يدى. فى طريقى إلى العمل سألت أكثر من واحد عن الوقت فوجد ساعته متوقفة، وجدت أيضا ساعة مكتبى متوقفة، وجميع ساعات الموظفين. ظللت طول الليل أتصل بك لأسألك عن الساعة ولم ترد علىّ. اليوم أيضا لم ترد علىّ، ولم تتحرك الساعات فى البيت عندى رغم أننى غيرت بطارياتها جميعا، ساعة يدى أيضا غيرت بطاريتها الصغيرة ولا تتحرك.

قلت فى يأس:

ـ يبدو أن الزمن توقف فعلا.

قال:

ـ لكن ساعتك تعمل.

قلت:

ـ دنيا ماتت.

اتسعت عيناه غير مصدق. تلعثم قليلا ثم تساءل ببطء:

ـ ماذا تقول؟ دنيا صغيرة. قلت لى إنها فى الثلاثين أو أكثر قليلا..

ـ انتحرت.

- يا إلهى .

- شنقت نفسها بحبل فى شقتها .

- يا أرحم الراحمين .

- كانت معى قبل الحادثة بساعة . كان يمكن أن تشنق نفسها عندى .

- أحمد الله إذن .

- أنا السبب .

قلت وأنا حزين جدا وواصلت الحديث .

- حمار . غبى . كدت أنام مع صديقتها أمامها . خرجت وتركتنا دون أن نشعر . ذهبت إلى بيتها وانتحرت . . كانت سألتنى من قبل هل الانتحار صعب؟

هتف حسن :

- انتظر انتظر . ما تقوله ليس سببا أبدا للانتحار ، لا يمكن ، غايته تخاصمك ، تهجرك ، تشتمك ، دنيا لم يكن يربطها بك إلا الجنس .

- دنيا كانت تحبنى يا حسن . لم تتحمل المشهد .

- هذا وهم تقنع به نفسك أنك مرغوب من النساء ، لست وحدك فى ذلك ، أنا أيضا أقع فى هذا الوهم . فى المرة الأخيرة رأيت سعيدة لا تهتم بى اهتمامى بها ، فأدركت أننى دخلت منطقة الوهم . كثيرا

ما يحب الإنسان شخصا آخر بقوة متصورا أن الأخر يبادله نفس الحب ، وحين يرى الآخر لا يهتم به لا يلوم نفسه ، يلوم الآخر الذى يبدو مندهشا جدا . ثم . ثم من الذى عرفك بصاحبتها؟

- هى .

- يا رجل اعقل . كانا يريدان أن يلهوا بك لا أكثر . لابد أن فى حياتها أشياء صعبة . هل تعرف علاقتها بزوجها؟

- سيئة .

- هذا وحده يكفى .

قلت فى حسرة شديدة .

- تنتحر الناس يا حسن حين تنسد أمامهم كل أبواب الأمل . لقد كنت أمل دنيا الأخير .

- أمل دنيا الأخير يقترب من الستين فى العمر؟!

نظرت إليه بدهشة . قال ذلك شاردا كأنما يلقى بحكمة بليغة ثم استطرد .

- لو كانت تحبك ما انتحرت .

قلت فى يأس شامل :

- لماذا إذن تنتحر فتاة فى عمر الزهور .

قال حاسما .

ـ قل لى أنت لماذا يدوســون الزهور؟ قل لى أنت لماذا تتــوقف الساعات فى بيتى؟

لم أرد . . .

❊ ❊ ❊

قـال لى حـسن إن السـاعـات توقـفت فى كل مكان يذهب إليـه ، وتحركت فى يدى أنا الذى أتألم لانتحار دنيا ، العالم إذن يتحرك فى الاتجاه الخطأ . كان على ساعتى أنا أن تتوقف ، فحادث انتحار دنيا كما هو واضح يؤلمنى جدا ، بينما فى بيته وفى الطريق وفى عمله تمضى الأشياء فى طريقها النظيم ، ذلك يؤكد ما قاله من قبل ، إن هناك غشا فى المواقيت . قلت له .

ـ أريد أن أحضر عزاءها . .

قال فى دهشة :

ـ تريد أن تقتل نفسك إذن .

قلت :

ـ أريد أن أبكى . لو بكيت شفيت . أنا أعرف نفسى .

ابتسم وقال .

ـ ستقتل نفسك فعلا لأنك لو بكيت فى العزاء ستثير شكوك الناس .

قلت :

ـ هذا عزائى الوحيد .

فكر قليلا ثم أمسك بالتليفون .

ـ هل تعرف رقم تليفون بيتها .

ـ أجل .

أمليته الرقم فطلبه وهو يقول مبتسما .

ـ لعلها تكون حية . ربما كذبت عليك صديقتها . ممكن جدا .

للحظة تمنيت أن يكون ذلك حقيقيا . لكنه تكلم . قال إنه أخو إحدى صديقاتها فى العمل ، وأن أخته فى حالة من الصرع منذ علمت الخبر ، سكت وبدا مرتبكا جدا للحظات ، ثم تساءل هل العزاء اليوم بعد صلاة العشاء؟ وطلب العنوان وقال البقية فى حياتكم .

أعاد السماعة إلى التليفون واجما .

بدا الحزن يغطى وجهه ، وقف واتجه إلى النافذة ، انفجر باكيا وأنا أنظر إليه بدهشة . التفت إلىّ بعد أن فتح النافذة ثم أغلقها وقال :

ـ كيف حقا يموت الناس مجانا هكذا يا أخى؟ هذا والله ظلم شديد . ماذا يفعل الكهول أمثالنا . هكذا نحن أبطال .

للحظات صارت المسالة كأنما تخص حسن، هكذا أحسست، وأنه صار عليّ أن أهون عليه. لكنه قال:

ـ لقد انتهى تحقيق النيابة بسرعة، شهد زوجها وابنتها الصغيرة بأن دنيا كانت تعانى من اكتئاب شديد فى الأيام الماضية. يجب فعلا أن نذهب إلى العزاء. أمامنا أكثر من ساعة حتى موعد صلاة العشاء.

لم ينتظر منى ردا. خرج فخرجت معه.

❊ ❊ ❊

كنا نسرع فى الطريق، كان هو أسرع منى، حتى وصلنا إلى الكورنيش فوقفنا ننتظر تاكسيا لحظات وركبنا. حين مررنا على مكان بائع الورد قال:

ـ لولا أن الرصيف من الأسمنت والشارع من الزفت ربما نبت الورد مكان صاحبه. أجل. تكفى بذرة واحدة لتخرج وردة. المهم أن لا يدهسها أحد..

جلس حسن جوار السائق وجلست أنا فى الخلف. قال حسن لى بعد أن أبلغ السائق بالعنوان.

ـ هذا أحسن شيء نفعله. هكذا ستتخلص فعلا من أى ألم. لو أرجأنا ذلك كنت ستتعذب بغير طائل. على الإنسان أن يعرف مصدر الألم ثم ينتهى منه فورا ـ ثم خاطب السائق ـ أليس كذلك يا أسطى؟

رد السائق فى غلظة.

ـ طبعا. لماذا يتعذب الإنسان مجانا؟

قال حسن:

ـ حتى لو كان شخصا وضايقك فعليك أن تضايقه فى اللحظة نفسها. اجعله هو الذى يتألم، أو على الأقل يخيب سعيه فى إيلامك ـ ثم توجه بالحديث مرة أخرى إلى السائق ـ أليس كذلك يا أسطى؟

قال السائق بحسم:

ـ طبعا. أنا اللى يضايقنى أطلع دين أمه.

هتف بذلك فى إجرام حقيقى أربكنا. كنت أنا أفكر فى لا معنى ما نفعله، ربما نتسبب حقا بعملنا هذا فى مشكلة ما لزوجها، أو بيننا وبينه. فكرت أطلب من السائق أن يتوقف لكن حسن قال:

ـ من يدرى ربما تتحرك الساعات.

ثم ضحك وقال:

ـ دعنى أحدثك عن حلم جديد رأيته أمس. حلم مع سعيدة أيضا، رغم أننى كنت أعرف أن التى فى حضنى ليست سعيدة بل أمينة زوجتى، عند النهاية مددت يدى إلى النقود التى عادة ما أضع بعضها تحت المخدة، كدت أعطيها خمسين جنيها وأنا أقول تستحقى أكثر يا سعيدة.

اندهشت جدا، وواصل هو الحديث.

ـ فى المرة السابقة كما تعرف دخلت أمينة فى الظلام إلى حضنى وكنت أحلم بسعيدة، هذه المرة كنت أعرف من البداية أنها أمينة، لكن فى آخر الحلم كدت أروح فى داهية. لم تكن هناك نقود تحت المخدة، وتوقفت عند الجملة الأخيرة. يا إلهى. تخيل لو وجدت زوجتى النقود بيدى وأنا أنادى باسم سعيدة

هنا فقط ابتسمت. ابتسم السائق وهو يهز رأسه فى دهشة. قلت:

ـ أمرك عجيب يا حسن. ألهذا اتصلت بى؟

قال:

ـ وبسبب مسألة الساعات كما قلت لك ـ وسكت لحظة ـ لم أكن أعرف أنك تستمتع مع صديقة صاحبتك..

نظر السائق إلى حسن ثم نظر فى المرآه. كنت أعرف أنه يريد أن يرانى. بدا غير مرتاح لكلامنا، لكن لجنة مرور ظهرت تقطع الطريق فارتبك السائق وقال.

ـ ما هذا الغم. ما هى حكاية لجان المرور المنتشرة فى كل مكان هذه الأيام؟

سأله حسن:

ـ أليس معك رخصة؟

ـ مسحوبة منذ شهر.

قال السائق فى قرف فقال حسن:

ـ سيروننا معك ولن يوقفوك. المهم أن لا ترتبك.

وقف التاكسى فى طابور صغير من السيارات التى كانت تمر بسرعة بمجرد إظهار الرخصة للضابط أو مساعديه، حين وصلنا إلى الضابط مديده للسائق الذى قال.

ـ نعم؟

ـ رخصك.

أخذ السائق يبحث فى جيوبه لحظات. تساءل الضابط فى ارتياب.

ـ ضاعت؟

قدم السائق إيصالا صغيرا يدل على أنها مسحوبة. قال الضابط:

ـ الإيصال مدته أسبوع. تاريخه منذ شهر يا روح أمك. لماذا لم تدفع الغرامة وتستعيد الرخصة؟ اركن على جنب.

ركن السائق التاكسى وهو يقول ناظرا إلى حسن ثم إلىّ:

ـ ليلة زفت. باينة من أولها.

نزل واتجه إلى الضابط. رأيناه يتوسل إليه، ثم بدأ يرفع يديه أثناء الحديث فى كل اتجاه، ثم لطم خديه وضرب وجهه ضربات سريعة. اجتمع مساعدوا الضابط حوله محاولين تهدئته، لكنه دخل فى نوبة صراخ حادة. قال لى حسن:

ـ علينا أن نترك هذا التاكسى فورا. هذا السائق لو عاد إلينا سيضربنا.

تركنا التاكسى، أشرنا إلى تاكسى آخر، لم أنس قبل أن أركبه أن أذهب إلى السائق الأول أعطيه خمسة جنيهات، رغم أن المسافة التى ركبناها معه لا تتجاوز الجنيهين. قبل أن نركب قال لى حسن:

ـ لا يجب أن نتحدث أبدا فى هذا التاكسى حتى نصل بسلام..

لكن ما أن جلسنا حتى قال ساخرا:

ـ قال لنا إن اللى يضايقه يطلع دين أمه؟

ثم ضحك. لكنى لم أكن قادرا على الضحك. كنا نتجه إلى العنوان، وأنا غير قادر على استيعاب انتحار دنيا التى فتحت لى أبواب المسرات الكونية. فكرة اختفاء الناس إلى الأبد عذاب حقيقى. أحسست بالدمع يترقرق فى عينى فجاهدت أن لا يطفر منهما. سادنا صمت ثقيل بدا خلاله أن السائق أيضا غير مستعد للكلام، حتى وصلنا إلى سرادق العزاء.

* * *

ـ تصرف كرجل. لو بكيت سيسألك ألف شخص عن علاقتك بالمرحومة وربما قام المعزون جميعا ليضربوننا.

قال حسن ذلك بينما أمشى جواره ذاهلا عنه وعن كل شىء حولى. كانت الأمتار القليلة من حيث توقف التاكسى إلى سرادق العزاء أشبه

بطريق فى صحراء. لاحظت أن السرادق كبير لكن المعزين قليلون. المستقبلون ثلاثة بينهم شخص قصير بدا لى الأكثر حزنا. أدركت أنه زوجها من قصره وصلعته. هكذا وصفته لى دنيا مرة بإيجاز شديد. جلسنا فى نهاية السرادق. كان صوت المقرئ شجيا لكنى رأيته يختلس النظر إلى المعزين بين لحظة وأخرى. لحظات بعد جلوسنا وهمس حسن:

ـ ألا تلاحظ قلة عدد المعزين؟

أجبت:

ـ ربما نحن فى البداية.

ـ لا.

ـ حسن اسكت أرجوك.

رأيت المقرئ يختلس النظر الينا أيضا. هز حسن رأسه وعاد يهمس لى.

ـ الفقيدة منتحرة. الناس اعتبرتها كافرة.

ارتبكت. تفسير معقول لقلة عدد المعزين. لم يسكت حسن.

ـ ألم يستطع زوجها إخفاء خبر انتحارها.؟ يبدو أنه لا يدرك قوة المد الإسلامى فى البلاد..

كنت بدأت أضيق بكلام حسن. ربت على ساقه ليسكت فسكت

هذه المرة. تركت نفسى لصوت المقرئ عله يؤثر فىّ فتنسال دموعى. بحاجة أنا حقا للبكاء، لن يهمنى ما سيفعله الناس بنا. لن يطهرنى إلا البكاء، لكنه للأسف لا يجىء. صوت المقرئ الشجى لا أجد الفرصة للتوحد معه، لأن حسن لم يصمت طويلا، عاد بسرعة إلى الكلام:

ـ الإنسان لا يعرف جلال القرآن الكريم وجماله إلا فى المآتم. شىء غريب. أليس كذلك؟

لم أرد فاستمر يتحدث:

ـ أسهل طريقة لحفظ القرآن حضور المآتم كل يوم.

كدت أضحك هذه المرة. وضعت يدى على فمى وأغمضت عينى وندمت على حضورى. فطنت إلى أن المقرئ يقرأ سورة من سور الجحيم والعذاب، فيها وصف مخيف للنار ولابد أن حسن أدرك ذلك إذ قال:

ـ أراهنك إنه لن يقرأ شيئا عن الجنة الليلة.

كاد المقرئ ينتهى من ربع القرآن الذى يقرأه. ما إن سكت حتى قام خمسة أو ستة أشخاص من العشرين أو الأكثر قليلا الحضور وانصرفوا. لم يكن لائقا أن نخرج بسرعة هكذا. جلسنا. المدهش أن حسن توقف عن الكلام رغم أن هذا هو الوقت المناسب لذلك. لم يدخل إلا عدد قليل آخر، تقدم ناحيتنا أحد الثلاثة الذين يقفون فى استقبال المعزين. رجل ضخم يطل الورع من وجهه ترك ذقنه البيضاء طويلة وأمسك بسبحة ويرتدى جلبابا سابغا. همس حسن لى:

ـ امسك نفسك. هذا الرجل سيسألنا من نحن.

اقترب الرجل منا جدا. قال وهو يصافحنا «شكر الله سعيكم» ثم جلس جوارى وسألنى:

ـ حضرتك من الوزارة؟

ـ لا.

ـ ظننتك من وزارة التربية والتعليم. إنت عارف طبعا إن المرحومة كانت مدرسة.

لم أرد. قال حسن بسرعة:

ـ نحن لا نعرف. حضرتك والدها؟

ـ أنا والد زوجها. لكن كيف تعرفانها ولا تعرفان عملها؟

ـ نحن لا نعرفها.

قلت بينما لاحظت حسن يضع يده على فمه ليدارى ابتسامته أو يكتم ضحكة. لابد يفكر الآن إننا وقعنا فى الفخ. قلت للرجل:

ـ الله يصبركم. هل المرحومة كانت كبيرة؟

تساءل الرجل فى دهشة:

ـ حضرتك لا تعرفها فعلا، إذن تعرف زوجها ؟

قلت:

ـ لا .

ارتبكت جدا لكن حسن تدخل بسرعة وقال :

ـ نحن كنا مارين فى الشارع ، رأينا العزاء قلنا ندخل نأخذ ثوابا .

ـ جزاكما الله خيرا .

قال الرجل ذلك ثم صمت ، بدورنا صمتنا حتى قال الرجل لحسن وهو يشير إلىّ :

ـ رأيت الأستاذ حزين جدا قلت أكيد من الوزارة ، أقصد المدرسة ، ويعرف المرحومة . أنا آسف .

قال حسن بسرعة :

ـ الأستاذ ابن حلال . لقد فقد أيضا زوجته منذ أعوام . رأى اللافتة التى تحمل اسم المرحومة أمام السرادق فتأثر جدا وطلب منى الدخول . نحن دائما نحضر الجنازات والعزاء ابتغاء مرضاة الله وثوابه . الأستاذ بالذات يتابع صفحة الوفيات ويختار الجنازة أو العزاء الأبعد حتى يكون ثوابه أكبر .

كنت أنا مندهشا جدا من هذا التدفق فى حديث حسن ، هذه الفكرة التى يؤكدها للرجل الذى قال :

ـ هذا فعل خير غير مسبوق والله . ثوابه كبير جدا عند ربنا .

كان واضحا أن الرجل مستاء من قلة عدد المعزين . وإذا بحسن يقول :

ـ تعرف حضرتك إنه مرة ذهب ليؤدى العزاء فى الإسماعيلية ولم يخبرنى ، مشوار مثل هذا ثوابه كبير جدا عند ربنا . أخذ الثواب لوحده .

انتبه الرجل جدا . فتح عينيه وبانت فيهما الدهشة ، لكن حسن استمر .

ـ أضاع علىّ ثوابا كبيرا ، لكن الحمد لله . الموتى كثيرون هذه الأيام . هل المرحومة ماتت بدون سبب؟

ارتبك الرجل وقال :

ـ أمر الله يا أستاذ .

نهض وتركنا . بدأ المقرئ فى ربع القرآن الثانى ، وأنا فى ارتباك وحيرة مما قاله حسن .

* * *

خلاء وصحراء وامرأة عارية تجرى نحوى على الرمال والشمس خلفها تضىء جسدها وتشعل النار فى عينى حتى إذا وصلت المرأة إلى حضنى ذبت فيها وذابت فىّ وصرنا شعاعا راح يدور فوق الرمال بسرعة صانعا إعصارا صغيرا لكنه سريع ابتعد كثيرا فى الصحراء ثم عبر المدن ورأيت نوافذ البيوت والعمارات تطل منها نساء عاريات وتصدح فى الشوارع الموسيقى ويقف الرجال تحت البلكونات تلقى النساء إليهم بالورود وهم يصرخون بقصائد الشعر ثم ملأ الفضاء صوت موسيقى

نحاسية في كل مكان وبدأ عرق يتفصد على عنقى من شدة الزحام والحر الخانق وكان المقرئ قد انتهى فتوقف حسن يشدنى من ذراعى وأنا ذاهل عنه حتى صافحنا المستقبلين. لم أنتبه إلى أن الذى شد على يدى بقوة هو زوج دنيا الباكى الحزين الذى بدا ممتنا جدا لشخصين غريبين يعزيان فى زوجته المنتحرة التى عزف الكثيرون عن التعزية فيها، وضح لى أن المقرئ لن يقرأ ربعا ثالثا، كان يريد أن يغادر، وفى اللحظة التى انتهى فيها ظهر عمال الفراشة يجمعون المقاعد بسرعة، وبدأ بعضهم يفك السرادق بسرعة أيضا وبعضهم يفصل المصابيح الكهربائية. كان الجميع مسرعين لمغادرة المكان كأن ما فعلوه خطأ أو خطيئة. فكرت أنا فى زوج دنيا المسكين الذى قد أكون أنا سببا فى هدم بيته وخراب حياته وبان لى شخصا طيبا حقا، لكنى لم أكره دنيا، لم أشعر أنها أخطأت فى حق زوجها و لم أبحث لها عن عذر، لقد ظهر لى أنى كنت فى حلم وانتهى، أو كنت أقف على محطة ولم يتوقف عندها القطار، أو توقف وركبت إحدى عرباته فوجدتها خالية، كنت أشعر بهواء يجرى فى رأسى. لقد مر على موكب غريب واختفى فهل ستظل ابتسامة سيدة الموكب تخايلنى كثيرا؟. لا أظن. ما إن ركبنا التاكسى حتى قلت لحسن:

ـ هل تعرف أن هناك الآن من يحرصون فعلا على حضور الجنازات والتعازى للذين يعرفونهم ومن لا يعرفونهم؟

قال:

ـ الناس تفرغت لجمع الثواب من أى شىء.

قلت:

ـ كأننا نعيش على إثم فظيع.

ثم شملتنا لحظات من الصمت حتى قال حسن:

ـ لا الحب ولا الدين أفلحا فى منع الناس من الانتحار للأسف.

بدأت أنا من جديد أفكر أننى لم أكن أبدا سببا فى انتحار دنيا، كانت امرأة صدفة اعترضت حياتى، وكنت أنا رجلا صدفة اعترض حياتها، ما كانت تفعله معى يشى بشىء واحد أنها تحب الحياه أكثر من أى شخص، أنا أو زوجها، وأنها كانت تهرب من موت يطاردها فى كل لحظة، لعل هذا الموت كان سيزداد فى مطاردته لها إذا اشتد مرضى، دنيا أكبر من أن تحتملها الحياة، ولم يبق إلا فادية، الحقيقة المملة المضجرة، حتى لو كانت ضحية، التى لا تبعث على البهجة مهما بدا فى كلامها من ظلم واقع عليها.

قال السائق:

ـ الحياة الحقيقية يا أستاذ ليست فى الدنيا. هناك فى الآخرة. الدنيا هذه مجرد أشباح تتحرك. تماما مثل السينما أو التليفزيون.

وسكت لحظة ثم أضاف:

ـ من يمت يفز بالنعيم الحقيقى.

قال حسن وهو يهز رأسه بورع .

ـ ربما تكون السينما أو التليفزيون هى الحقيقة ونحن الأشباح .

كان يتكلم جادا ، فنظر السائق إليه بارتياب . نظرت إلى ساعتى فوجدتها متوقفة . سألت السائق عن الوقت فقال :

ـ للأسف الساعة متوقفة منذ الصباح .

التفت حسن ينظر إلىّ مندهشا ، قبل أن يتكلم وجدت نفسى أقول له :

ـ لا تنس أن ننزل عند الحديقة . . .

[٨]

كيف ضللت السبيل إلى البيت؟

أو

لماذا لا يمكن أن أتزوج أبدا؟

أول ما قابلنا فى الحديقة بائعة الحلوى وزوجها يركلها هذه المرة وهى قابعة على الأرض. لا أحد يحاول تخليصها من السائقين أو الجالسين مما جعلنى أتقدم نحوها وأمسك بذراع الزوج، لكن الزوجة قالت:

ـ اتركه لا تكلمه، اتركه يفعل ما يريد.

وقفت مندهشا للحظة أنظر إلى الزوج الذى راح يبتسم لى فى شماتة، استجمعت نفسى وصرخت فيه.

ـ إذا ضربتها مرة أخرى سوف أضربك، سوف أتسبب فى طردك من المكان.

ارتبك الزوج للحظة ثم قال:

ـ طيب وإذا ضربتنى هى ؟

ـ سوف أطردكما معا.

مصمصت المرأة شفتيها غير مقتنعة، قال الزوج لها.

ـ هيا بنا من هذا المكان الوسخ، هذه الحديقة لم تعد مناسبة لنا، كل من هب ودب يأتى إليها.

جذبنى حسن من ذراعى وهو يبتسم، كنت أنا مهتاجا بحق، لكن دهشتى كانت كبيرة لدرجة اربكتنى، خاصة أن الزوجة نهضت بسرعة وراحت تجمع أشياءها وراح الزوج يساعدها.

ـ هذا عالم غامض إذا دخلته سترتبك جدا، يكفى ما أنت فيه.

قال لى حسن ونحن نتقدم من الباب ثم أضاف:

ـ ما الذى جعلك تفكر أن تنزل عند الحديقة حقا؟

قلت فى انفعال.

ـ تصورتها خالية خاصة أننا تأخرنا، أردت أن نجلس وحدنا قليلا فى مكان هادئ.

لمحت بائعة الشاى وسعيدة تنظران إلىّ بإشفاق، ما إن جلسنا حتى فكرت فى أن هناك عشرات الأماكن الخالية التى تليق بنا، فما الذى يعيدنى إلى هذه الحديقة حقا، خاصة وأنا لم أحبها من قبل؟ شىء آخر جعلنى آتى الليلة هنا. الحقيقة أننى لم أعد أعرف أى مكان آخر.

* * *

لم يكن بالحديقة غير ثلاثة أشخاص، كالعادة جلس كل منهم على مقعد بعيد، أحدهما يقف ثم يجلس ثم يقف ليمشى قليلا ثم يعود ويجلس. كان شابا فى العشرينات من العمر، كان الجميع يرتدون بذات شتوية قاتمة لا تتضح وسط الظلام. .

تقدمت منا بائعة الشاى وقالت جملتها المعهودة «شاى ولا قهوة» قال حسن «قهوة. قهوة سادة الليلة» وضحك. نظرت إلينا بدهشة فقال حسن حين رآها تتأملنى أكثر:

ـ الأستاذ أحمد متأثر قليلا. نحن قادمان من عزاء.

قالت المرأة:

ـ حبيب ولا غريب.

لم أرد. رأيت حسن مرتبكا لا يجد ردا. هى لم تقصد بغريب إلا أنه شخص لاصلة قوية لنا به، لكن الكلمة أثارت ألمى، هل يحتاج الإنسان إلى غربة أكثر مما عرفت دنيا؟. رأت المرأة صمتنا المرتبك فقالت.

ـ والله المسافر مرتاح. انظر.

ثم أشارت إلى الشاب القلق البعيد وقالت:

ـ من جماعة العقيد عباس.

تخيلت أنه عسكرى أو مخبر ممن يتبعون من تسميه العقيد عباس، فى أسوأ الأحوال اضطربت روحه من المعاملة، أو العمل، لكنها شرحت لنا كيف أن هناك أكثر من عشرين شخصا مثل هذا الشاب، يأتون أحيانا هنا بالنهار، أكثرهم يمشى حافيا، يجز على أسنانه طول الوقت، ويضحك ناظرا إلى الفضاء، ثم يضرب كفا على كف. هؤلاء صورتهم الصحافة مرة، وأقسمت أنها رأت صورهم، ويسببون قلقا

لوزارة الداخلية، لأنهم يأتون فى الصباح من كل ناحية ويذهبون إلى القسم الذى يعمل فيه العقيد عباس ينتظرونه على الرصيف، فإذا خرج مشوا خلفه، وإذا ركب سيارة الشرطة جروا وراءها حتى تنقطع أنفاسهم إذ لا يلحقون بها، ثم يعودون ينتظرون عودة العقيد عباس. تبادلنا أنا وحسن النظرات فى دهشة. قلت:

ـ ولماذا يفعلون ذلك. ؟

قالت:

ـ ضحاياه بعيد عنك. أصله كان مفترى.

تبادلنا النظر أنا وحسن ثم انطلقنا نضحك. أقسمت المرأة أن ذلك صحيح، وأن الأمر لا يحتاج منا إلا أن نأتى مرة بالنهار لنراهم جميعا، فالعقيد عباس يعمل فى القسم القريب، عاد منذ أيام فقط، بعد أن كان قد انتقل إلى الصعيد لمدة عام.

هتف حسن:

ـ انتقل إلى الصعيد وعاد ووجدهم ينتظرونه؟

قالت:

ـ لقد ذهبوا وراءه إلى الصعيد.

قلت غير مصدق:

ـ هل تتحدثين بجد؟

قالت:

ـ كيف أن حضرتك رجل متعلم ومثقف ولا تعرف ذلك؟ أقول لك الصحف نشرت صورهم أكثر من مرة.

تركتنا وعادت تعد لنا القهوة وأنا وحسن نتبادل النظر فى دهشة وابتسامة. هتفت المرأة من بعيد وقالت:

ـ عايزين تشوفوا العقيد عباس استنوا لحد نص الليل. هو يأتى وحده إلى الحديقة ويجلس.

إذن هو الضابط الذى رأيناه من قبل. لكن كيف اتفق هؤلاء جميعا على ملاحقته بهذه الطريقة وأكثرهم لابد مثل هذا الشاب مضطرب عقليا؟! قال حسن:

ـ شفت يا عم. وتقول لى دنيا انتحرت!

رحت أهز رأسى فى دهشة، فى الحقيقة أنعشتنى القصة، حتى لو كانت خيالية. تذكرت ندوة حقوق الإنسان التى قابلت فيها دنيا، قلت لنفسى ما يفعله هؤلاء الضحايا هو أعظم طريقة لهزيمة الطغاة لو فهم السياسيون. قال حسن:

ـ يمشون وراء العقيد عباس مثل الضمير. سوف يجننونه. أراهنك سيمشى معهم يوما يجرى فى الطريق.

ضحكنا. قلت:

ـ يبدو أن مصير هذا البلد مرهون بالمجانين.

ضحكنا أكثر.

عادت المرأة حاملة صينية عليها فنجانان من القهوة. قالت ضاحكة:

ـ حكاية ولا السيما.

قلت لها فجأة:

ـ قلتي لنا من قبل أنك تزوجتي فى الثالثة عشرة.

ـ صحيح.

ـ كيف كان زوجك يعاشرك؟

نظر إلىّ حسن فى دهشة شديدة. أنا أيضا صرت مندهشا من نفسى. للحظة فكرت أن المرأة ستغضب منى لكنها قالت بجرأة:

ـ عاشرنى على سنة الله ورسوله. لم أكن أدرى ماذا يفعل. كان يمسكنى من شعرى ويثنى رقبتى إلى الخلف ويبرك فوقى الله يلعنه. كنت أشتكى لأمى فتضحك. لكن ساعات يبقى تعبان وينام وأنا أسأله، مش عايز تشدنى من شعرى النهاردة؟

ضحكت وضحكنا وعادت إلى الموقد.

* * *

سعيدة دائما تجلس تنظر إلينا باسمة، فتبدو كشبح من بعيد. لكنها تأتى فى النهاية إلينا.

قال حسن لى مندهشا:

ـ تتكلم بصراحة وجرأة هذه المرأة.

قلت:

ـ الوقوف فى الشارع لا يعرف الخجل.

قال هامسا:

ـ تعنى أنه يمكن معاشرة سعيدة.

ـ يحتاج الأمر فقط إلى جرأة.

لكن سعيدة لم تأت ناحيتنا بعد. راحت تجرى وراء ابنها الصغير كثير الحركة الذى كان يدور حول الموقد بطريقة تنذر أنه سيقع على النار، لكنه لم يقع، وأقبلت أم سعيدة علينا من جديد. كان واضحا أن سؤالى أنعشها. قلت:

ـ لماذا لا تتزوج سعيدة وهى جميلة؟

قالت:

ـ تريد تربية ابنها.

ـ وكيف تعيش؟

ـ ماذا تقصد. المال يعنى؟ نتقاسم ما نكسبه.

قلت:

ـ لا . أقصد كيف تعيش بدون معاشرة؟

قالت :

ـ المعاشرة إذا لم تكن بالحلال بلاها .

هنا تدخل حسن ضاحكا فقال :

ـ والله أنا عايش بالحلال وغير مبسوط .

قالت :

ـ ليه . مراتك مش حلوة؟

قال حسن :

ـ آخر جمال لكنها دائما تقول لى أنا تعبانة .

ـ ألا تعطيها فلوس؟

ـ أعطيها بالهبل . اشتريت لها أسورة بألف جنيه منذ يومين وأيضا قالت لى أنها تعبانة .

قالت المرأة فى حسرة :

ـ ألف جنيه . يا ريتنى كنت أنا .

وتركتنا وعادت إلى الموقد . قال لى حسن :

ـ ذهبت تفكر فى الألف جنيه .

قلت :

ـ لقد أحبطتها .

قال :

ـ أراهنك إن سعيدة سوف تأتى إلينا الآن .

بالفعل تقدمت سعيدة نحونا بعد أن تكلمت مع أمها لحظة . هتف حسن على طريقته حين يرتفع صوته وينظر إلى بعيد .

ـ لماذا لم تعودى تحدثيننى فى التليفون؟ .

ارتبكت . كنا انتهينا من شرب القهوة ، فانحنت تحمل الصينية وعليها الفنجانان . نظرت إلىّ وهى تضحك وتقول :

ـ الحاج صاحبك يقول كلاما غريبا دائما .

كانت كلمة حاج كافية لأن يسكت حسن . زاد الطين بلة كما يُقال إقبال ابنها ناحية حسن فقالت له :

ـ تحب جدو يا حبيبى .

كتمت ضحكى إذ رايت حسن يكفهر وجهه فى الظلام . نظرت إليه سعيدة ثم سألتنى :

ـ هو ليه زعل كده؟

قال حسن فجأة :

ـ تقولين عنى جدو وأنا كنت أفكر أتزوجك .

سألت بدهشة :

ـ تتزوجنى أنا؟

ـ أجل .

ضحكت وقالت وهى تشيح بيدها .

ـ يا عم اعمل معروف . ثم إننى لا أنفعك .

ـ لماذا . لأنى جدو كما تقولين ؟

اقتربت منه ، وربتت على كتفه وقالت :

ـ لا والله . حضرتك فين . وأنا فين . حقك علىّ . .

رأيت حسن يتحول إلى طفل صغير ، وأقبلت أمها تقول :

ـ إياك يا سعيدة تكونى زعلتيه .

قلت متخابثا :

ـ حسن يريد أن يتزوج سعيدة لكنها رفضت . ما رأيك تتزوجنى أنا . ؟

قال حسن :

ـ أحمد أرمل وصاحبته توفت اليوم .

قالت أم سعيدة :

ـ لكنك قلت لى من قبل إن زوجتك مريضة!

قال حسن :

ـ لا . هى متوفاة .

تساءلت المرأة :

ـ منذ متى؟

قال حسن :

ـ ست سنوات .

فكرت المرأة لحظة وقالت :

ـ رجل تمر عليه ست سنوات وهو أرمل لن يتزوج أبدا . .

قبل أن أندهش قالت :

ـ ست سنوات تعنى أنك كنت تحب زوجتك ، ولا تجد فى أى امرأة أخرى ما يعوضك عنها . لا تكذب على نفسك يا أستاذ .

ثم قالت لسعيدة أن تجمع العدة للمغادرة . رأيت الشاب القلق يغادر الحديقة . لم يكن قد تبقى من الجالسين الثلاثة غيره ، رأيت السائقين ينظرون إليه ويضحكون . قال حسن :

ـ أظن نغادر نحن أيضا .

أعطى حسن أم سعيدة جنيهين ، أعطيت أنا سعيدة عشرة جنيهات قائلا :

ـ اشترى شيئا للولد .

اتسعت عينا سعيدة بالفرح . قلت لحسن بعد أن ابتعدنا قليلا :

ـ هذا أقصى ما نستطيع أن نفعله فى الحديقة . نقدم شيئا يبعث على البهجة لناس لا بهجة فى حياتهم .

قال حسن :

ـ لقد ضحكنا ولو قليلا على أى حال . لابد أنك أفضل الآن .

ـ أفضل كثيرا .

كنت حقا أشعر بشىء من الارتياح . .

* * *

رآنى حسن أضغط بيدى على صدرى فقال :

ـ لا تقل لى هناك ألم .

قلت :

ـ فى الحقيقة بدأ يعود . ربما من الانفعالات التى سبقت خروجنا معا .

ـ وربما من عدم الحركة . أنت لا تمشى إلا معى .

قلت :

ـ ممكن .

كنت أشعر بالألم يزداد فلم أشأ الاهتمام . أسرعت فى المشى لأرى ماذا سيحدث لى بعد قليل . أسرع حسن جوارى وراح يتحدث بسرعة . قال إن مسالة توقف الساعات لم تكن وحدها هى التى أقلقته . لكن الحوار الذى اشتعل بينه وبين زوجته هذا المساء قبل أن يأتى إلىّ . لقد حاولت منعه من الخروج . قالت له صراحة أن لا يذهب إلى الحديقة وأنها غير مرتاحة لأحاديثه معى فى التليفون عن بائعة الشاى وابنتها . لم أكن أعرف أنه حين يتحدث فى ذلك معى فى التليفون تسمعه زوجته التى بلغت من ضيقها أنها احتجت على غدائه بالجبن القريش والسلاطة فقط . قالت له إنها لا تستطيع أن تعيش على هذا النظام الغذائى الذى يتبعه أكثر من ذلك ، ولما قال لها أن تأكل ما تشاء قالت إنها تحبه ولا تستطيع أن تفعل ذلك ، وأن عليه أن يعود إلى عاداته القديمة فى الطعام إكراما لها . لكنه ، وهذه مشكلة حقيقية ، نسى عاداته القديمة وهى لا تدرى ، وأحس بإشفاق كبير على زوجته ، لكنها طيرت هذا الإشفاق من قلبه حين اعترضت على استخدام الشاى الأخضر بهذه الكثرة فى البيت ، فهى عاشت عمرها قبل أن تتزوج لا تسمع عن هذا الشاى الأخضر ، وإنه ما دام يذهب إلى الحديقة فلابد أن المرأة تقدم له الشاى الأحمر فلماذا لا يشرب الأحمر فى البيت . قالت إن الشاى الأخضر لا يعرفه إلا هو وأنا ، ونحن معا مجنونان . ضحكت واستمر هو يتكلم . كان الألم قد زال من صدرى فرحنا نمشى على مهل ، قال لقد تأكد لى بأننى أهذى باسم سعيدة كثيرا فى النوم وأنها تسمع هذا الهذيان دائما ولم تعد قادرة على تحمله . إن حياتى الآن على كف عفريت يا صديقى ،

ويجب علينا حقا أن لا نعود إلى هذه الحديقة، لكن المشكلة أننى لا أستطيع. قد تستطيع أنت، لأنك من البداية لم تحب المكان، طلبك الحضور اليوم كان من باب العبث لا أكثر، أنا أفهمك، أما لماذا لا أستطيع الامتناع عن الحضور إلى الحديقة فذلك مالا أفهمه. ربما لأنى حين أجلس فيها لا أشعر أن هناك مدينة كبيرة تترامى حولنا، ربما لأن القليلين يدخلونها بالنهار أو بالليل فلا تشعر فيها باضطراب. أجل. هو ذلك. ففى علم الطاقة تنتقل حالة الناس إلى ما حولهم من أماكن أو أشياء. إذا كان الناس ضجرين ينتقل ضجرهم إلى المكان. لذلك تجد الراحة الحقيقية فى الخلاء، الصحراء، الواحات، المساجد، الكنائس، الحدائق الخالية، هل تعرف أن الماء يمكن أن يضطرب باضطراب حامله؟ أجل. لو أمسك شخصان بكوبى ماء، أولهما متوتر والثانى هادئ، وقمت بتصوير بللورات الماء فى كوب الهادئ فستجدها متألقة وتأخذ أشكالا جميلة منعشة، وبلورات الماء فى كوب المتوتر مهوشة فى فوضى، لذلك تجد أهالينا قبل أن يشربوا يسمّون على الماء. ينقلون شيئا من الوداعة والسكينة إلى الماء. ولولا عربات الميكروباص لصارت هذه الحديقة أهدأ مكان فى العالم، لكنها عربات قليلة على أى حال، ثم إنها بالليل لا تزيد على ثلاثة أو أربعة. المهم لم أستطع شرح ذلك لأمينة وجعلنى الحوار معها قلقا طول اليوم، إضافة إلى توقف الساعات، لقد قست ضغطى أكثر من عشر مرات، حتى صار جهاز قياس الضغط لا يفارق إصبعى. ضحك عند هذه الجملة. وضحكت أنا أيضا. ثم أمسك بذراعى يوقفنى..

كان هناك رجل مسن يمشى ببطء قادما من الرصيف الأخر، كان يرتدى جلبابا، وجواره شاب يحمل مقعدا صغيرا من البلاستيك ويقف وسط الطريق يشير إلى السيارات القليلة أن تقف حتى يعبر الرجل المسن الذى كان بطيئا جدا. فى النهاية وصل الرجل إلى الرصيف المجاور للنيل الذى نمشى فوقه. صعده بصعوبة مستندا على ذراع الشاب ثم وضع الشاب الكرسى فجلس الرجل عليه وراح يسعل عدة مرات. كان رجلا نحيلا جدا فى وجهه تجاعيد كثيرة ويتنفس بصعوبة. رآنا الشاب ننظر إليه فقال:

ـ هذا والدى. عنده انسداد فى الشريان التاجى. زهق من الجلوس فى البيت فخرجت أمشى به قليلا.

قال حسن:

ـ لماذا لم تجروا له عملية قسطرة؟!

قال الشاب فى أسف.

ـ الحقيقة عنده انسداد فى أكثر من شريان، وطابور انتظار العمليات طويل.

اندفع حسن يكلم الرجل المسن بحماس:

ـ لا تخف. عمليات القلب مثل عمليات اللوز فى مصر الآن. صديقنا كريم غير ثلاثة شرايين بسهولة. ممكن جدا بعد العملية تجد الحجاب الحاجز فى غير مكانه. لا تقلق. مع الوقت سيعود إلى مكانه.

صرت مندهشا جدا، أما الرجل فبدا غير آبه لما يسمع، وكان الشاب يبتسم متحيرا ويتردد بعينيه بينى وبين حسن. وواصل حسن:

ـ صدقنى. كل شيء سيعود إلى مكانه.

جذبت حسن ومشيت بسرعة. قلت:

ـ أخفت الرجل.

قال:

ـ لابد أن يعرف كل شيء ويكون مستعدا له. ذلك حدث لصديقنا كريم فعلا. لا أحد يقول الحقيقة الآن!

ضحكت. لا فائدة، ولا معنى لأن أقول له أن الرجل لن يقدم على إجراء عملية أصلا. لكنا ما كدنا نبتعد قليلا حتى وجدنا رجلا مسنا آخر يرتدى بيجامة هذه المرة يعبر الطريق على مهل ومعه شاب يحمل كرسيا صغيرا ويوقف السيارات حتى يستطيع العبور. هتف حسن:

ـ هيا بنا نسرع من هنا.

أسرعنا ونحن نضحك فى ذهول..

* * *

وقفت أمام البيت لا أذكر شيئا حولى أو أمامى. المسافة من مكان لقائنا، أو افتراقنا على الكورنيش إلى بيتى ليست بعيدة، لم يحدث فيها أن فكرت فى شيء، بل إن السورين اللذين يحفان بالشارع لم

يمشيا معى هذه الليلة، لا أذكر أنى حتى رأيتهما، انشغلت بالتفكير فى كلام حسن عن انتقال الطاقة المضطربة من الناس إلى المكان وفكرت فى أحوالنا، هذه الأعداد الهائلة فى المدن والريف، أكثرها غير متزن، فقير، وكيف تغير سلوك الناس فأصبح غير متوقع، حركاتهم سريعة، ضجيجهم عال، فشت الأنانية فى الكثير منهم، اللامبالاة وروح التدمير، مع حكومات لا تهتم أصلا بإصلاح الأحوال، على الأرض وبين الناس. لقد تعقدت المشكلة إذن وأصبح إصلاح هذه البلاد ضربا من المحال، لأنك حتى لو غيرت نظام الحكم تحتاج إلى عشرات السنين لضبط إيقاع الناس، أن يكونوا طبيعيين ليكون المكان طبيعيا، أسوياء ليكون المكان سويا، يا إلهى. لو صح كلام حسن، ويبدو لى صحيحا، فعلى البلاد السلام. ضحكت من نفسى، أن أفكر فى ذلك، وأن أهتم فجأة بشأن البلاد، لكن ما أن وصلت إلى البيت حتى وقفت حائرا. هل هذا هو بيتى حقا؟ كانت الشوارع خالية تقريبا، لا أحد يرانى وأنا أقف، شعرت برأسى ثقيلا، كل شيء سبق وعرفته قد ضاع تماما. أذكر جيدا شيئا كالشرر الكهربى جرى فى رأسى. شيء مدو رأيت صوته أمامى! عجيب. قلت لنفسى وأنا ابتسم. تراجعت قليلا إلى الخلف أدقق النظر. لا شيء مما حولى أعرفه. كل واجهات العمارات التى حولى لم يسبق لى رؤيتها من قبل!

مشيت مبتعدا مستسلما لأدخل فى الشارع المقابل. لا أتذكر أنى رايته من قبل. تركت نفسى أمشى. أسلمنى شارع قصير إلى شارع قصير إلى شارع قصير. كل الشوارع باتت قصيرة، أزقة فى الحقيقة

كانت تحتل مكان الشوارع تحت قدمى، شيئا فشيئا تزداد الحركة حولى، يظهر ناس وعربات ميكروباص صغيرة وتاكسيات قديمة وعربات كارو أيضا، محلات صغيرة وباعة لكل ما هو قديم، ملابس، أثاث، أحذية، روبابكيا، زجاج، أدوات منزلية، ورود بلاستيكية، وقطط. قطط. عشرات من القطط الضالة، والكلاب العجفاء، جثث كتاكيت وفراريج منتفخة بطونها وأكوام زبالة عالية جوار صفائح وبراميل الزبالة، حمير مربوطة على أبواب البيوت التى صارت صغيرة وروث بهائم وسباخ مبعثر على الأرض. لقد دخلت فى منطقة أشبة بريف منسى منذ زمان. أكثر الذين أقابلهم عجائز، من الباعة والمشترين، رجالا ونساء، وصمت عميق يشمل كل شىء، لا أحد ينادى على بضاعته، لا أحد يتكلم مع أحد، أعمدة إنارة قليلة، لكن أنوارها تملأ المكان كله، تجعله قطعة من النار أمام عينى، نار باهرة تجعلنى لا أتعرف على أى شىء، شيئا فشيئا بدأ العماء الذى أسدل ستارته أمام عينى ينزاح. أنا أعرف هذا المكان جيدا. ليس بعيدا عن بيتى. كنت دائما أحذر ابنى وهو صغير أن يأتى إليه مع أصحابه. مناطق عشوائية قريبة من المكان الذى أسكن فيه تزداد كل يوم اتساعا وبؤسا. أجل. أجل. هى عينها المنطقة التى عاش فيها أحد أصدقائى ومات فجأة حين توقف الكبد عن العمل.

أنا إذن قريب من البيت. ليس علىّ إلا أن أعود.. عدت أحاول الانتباه إلى كل ما حولى لا أريد أن أفقد الطريق مرة أخرى، والأضواء عادت خافتة كما هو الحال دائما فى مثل هذه الأماكن، تذكرت الدوى

الذى حدث فى رأسى، والشرر الذى أفقدنى القدرة على تمييز مكانى وزمانى. شيئا فشيئا بدأ رأسى يبرد، إدراكى يزيد، عيناى تتسعان، حتى صرت أتعرف على ما حولى جيدا وأنا أقترب كثيرا من البيت وأهز رأسى مندهشا. هل صرت ضعيفا جدا على هذا النحو لا أحتمل أى مأساة؟. ماذا سيحدث لى فى الأيام القادمة؟. سؤال سألته لنفسى وأنا أقف أمام بيتى من جديد وأتعرف عليه جيدا. هو نفسه البيت الذى وقفت أمامه منذ قليل ولم أعرفه.

[٩]

كيف سأل حسن عن منى الحوت؟

أو

لماذا كان سعيدا جدا آخر الليل..؟

كان عليّ أن أذهب إلى حسن هذه المرة. حدثتنى زوجته أمينة فى التليفون باكية.

حسن لم يعد يذهب إلى العمل، الموظفون فى إدارته، اتصلوا يسألون عنه ويقولون إن الموقف ساء جدا، فهناك أوراق كثيرة يجب أن يوقعها ويعتمدها. هى تخشى أن ينتهى الأمر إلى فصله. ولما قلت لها إنه من الصعب فصل مدير عام، إنهارت وقالت «أنت أيضا تتكلم مثله»، أحسست أنها تحملنى بشكل ما المسؤلية عما يحدث، خاصة أننى أيضا لا أذهب إلى العمل كما أخبرها حسن.

فى بيتى لم يبد أن ذلك يهم أحدا، فابنى مشغول عنى، ولا يقلقه أى شىء. الأبناء لا يتخيلون أبدا أن كارثة ممكن تقع لأهاليهم، لا يعنيهم ذلك، فالآباء مسؤلون عنهم فى كل الأحوال. طلبت منى أمينة أن أحضر وأطلب منه أمامها أن يذهب إلى العمل، فباعتبارى زميله فى الهيئة نفسها يمكن أن أخبره أن الموقف قد تدهور جدا. ثم إنه مشغول بى عن أى شىء آخر، ومن ثم أستطيع إقناعه بسهولة. رغم أن تقديرى للمسألة لم يكن مخيفا كما تتخيل أمينة، قررت أن أذهب إلى بيتهما.

لم أستطع أن أقول لها إننا نعمل فى هيئة لايهتم رئيسها بأى شىء، ولا يعنيه أن تتقدم أو تتأخر، تكسب أو تخسر، شأنه فى ذلك شأن جميع مسئولى الهيئات فى البلاد.

ما إن دخلت حتى وجدت حسن يزجرها بصوت عال:

ـ إذا كان أحمد نفسه لا يذهب إلى العمل فهل تتصورى أنه سيقنعنى يا هانم؟ المهم أننى أتقاضى راتبى وأعطيه لك. حين ينقطع الراتب تكلمى واصرخى وابكى أيضا.

اكتشفت حين دخلت شقتهما أننى جئت لأشكو له مما جرى معى المرة السابقة بعد أن تركته. كيف ضللت طريقى إلى البيت، وهل ما حدث يمكن أن يتكرر حقا، أم كان نتيجة للضغط الذى عانيته منذ علمت بانتحار دنيا؟. على أى حال كان من السهل أن أكلمه بلهجة يفهمها لينهى المسألة مع أمينة، فقال لها ضاحكا:

ـ طيب سأسمع الكلام. المهم لا يأتى إلىّ ابن أحمد أو بنته بعد أيام يطلبان منى أن أقنعه بالذهاب إلى العمل..

ابتسمت. ظهر يأس كبير على وجه أمينة التى قالت وهى تتركنا فى الغرفة «لا فائدة» ثم صرخت «إن شاء الله مسيرك الخانكة يا حسن يا جوزى». ضحك حسن وابتسمت أنا فى خجل. ما إن خرجت أمينة من الغرفة حتى قال:

ـ المشكلة ليست فى أنى لا أذهب إلى العمل. المشكلة فى رغبتى فى

شراء كلب. هى لا تحب الكلاب. تحب القطط.. يا رجل صار لدينا ست قطط وكلها تبول فى أحواض الزرع، و النتيجة أننى كلما زرعت شجرة احترقت.

كان هناك قط يقف على عتبة الغرفة ينظر إلينا بإمعان. رآه حسن فاستطرد.

ـ هذا القط بالذات لا يكف عن النظر إلىّ. يبــدو أنه يدبر لى مصيبة. أنا كنت قدرت على البنى آدمين لما أقدر على القطط!!

ضحكت. جاءت أمينة ضاحكة وقالت:

ـ حقك علىّ يا حسن. أنت حر لكن والله العظيم أنت مازرعت أى شجرة، أنت فقط تبحث عن حجة للتخلص من القطط، المهم انس حكاية الكلب هذه، لأجل خاطرى.

راح يهز رأسه يمينا ويسارا فى يأس ثم قال:

ـ حاضر.

اقتربت منه وقبلته وخرجت فقال لى.

ـ لا يريدون لى أن أنعم بشىء يطيعنى. نقاشها الكثير ونقاش الولد والبنت، حتى البنت، جعلنى أفكر جيدا فى شراء كلب. كلب يطيعنى مثل الكلب!!

سكت ونظر إلىّ مندهشا من نظرى إليه. قال:

ـ شكلك واقع فى مصيبة جديدة .

* * *

ـ هذا المشوار كان علينا أن نفعله من زمان . .

قال حسن ذلك ثم استطرد .

ـ ما جرى لك خلل فى خلايا الذاكرة . لا تقلق . فيتامين (بى) يعيد كل شىء كما كان . قلت لك كثيرا ولم تسمع كلامى . على أى حال سنشترى رشيم القمح . أفضل من أى فيتامين . .

كنا مشينا كثيرا جدا . قلت :

ـ هل تعرف المحل فعلا يا حسن؟

قال :

ـ يا رجل قلت لك اشتريت منه عطارة منذ عشرين سنة . ربما أكثر من ذلك قليلا فكيف لا أعرفه . قل لى أنت ماذا وجدت وراء بيتك؟

ـ منطقة عشوائية رهيبة لم أكن أتصور أنها اتسعت هذا الاتساع .

قال :

ـ العشوائيات فى كل مكان الآن ـ وضحك ـ الناس تقيم المناطق العشوائية بعيدا عن عيون الدولة ، والدولة تقيم المناطق الجديدة بعيدا عن عيون سكان العشوائيات ، فى النهاية يتصل الجميع ببعضهم . حقا ، المصريون فى رباط إلى يوم الدين!

سكتنا ، كدت أضحك لكنى لم أضحك ، فكرت كيف كان حريصا على أن يضع جهاز الضغط الصغير فى جيبه عند خروجنا . توقعت أن يوقفنى وسط الطريق ليقيس لى درجة الضغط خاصة أننا مشينا كثيرا ، لكنه قال :

ـ أظن آن أن نسأل . عشرون سنة ليست بالقليلة . يمكن فعلا أن أكون نسيت الطريق .

سألنا أحد أصحاب المحلات فعرفنا أننا فى الطريق الصحيح ، وأننا اقتربنا كثيرا من المحل . قال حسن :

ـ قلت لك صعب أن أنسى . عطار بهذه الشهرة لا ينساه أحد بسهولة . منذ عشرين سنة كان أقرب . لم أمش كثيرا مثلما مشينا اليوم .

لم أشأ أقل له إنه منذ عشرين سنة كان أقوى ، وأن المسافة هى هى لم تتغير . قلت :

ـ اليوم سأدخل مملكتك السحرية يا أبو على ، وأشترى كل العطارة التى سترشدنى إليها .

قال :

ـ لا تنس تشترى عسل السدر الحضرمى . إنه غال جدا ، لكنه يستحق .

قلت :

- سأشترى كل شىء.

قال:

- هناك طبيب فى المحل، قابلته منذ عشرين سنة. هو الذى سيرشدنا إلى ما نريد.

* * *

لم يكن المحل مثيرا لأول وهلة، مجرد عطار مثل كل العطارين، يبدأ بقسم العطارة، حيث تجد يسارك البطرمانات والعلب أمام وخلف الباعة بها مواد العطارة المختلفة، بعضها قريب يمكن قراءة أسماءها بسهولة، وبعضها بعيد وعلى أرفف عالية. على اليمين العطارة التى على حالتها النباتية وإن كانت جافة مثل الكركديه والزنجبيل والعرقسوس والخروب والقرفة. لكننى وجدت أنه بقليل من التأمل تكتشف أن أسماء النباتات ومستخلصاتها أكثر من أن تحصى. كنت أقرأ بلا صوت لكن حسن كان يرفع صوته، خفت أن يشرح لى كل نبات فلا تنتهى مهمتنا، لكنه اكتفى بالقراءة فقط والإعجاب. خلنجان وعفص، دوزال شامى ومستكة صينى وحناء وزهور البابونج ولبلاب الحقول وقرنفل وعوسج وإكليل الملك ومريمية، أهليلج ودار صينى ودينا عجمى وعروق الصباغين وزعتر شامى وعصفر بلدى وكزبرة البئر وخردل أبيض وكنافة البحر وحب الفهم. ضحك وقال تصور إن للفهم حبوبا ولا أحد يدرى، ثم عاد يقرأ وأنا أريد أن أنجز مهمتى لكنه لم يتزحزح. خلة بلدى وعرعر حب وهيل حبشى وأكاليل الجبل وورق

الآس ولبان وشقائق النعمان وزهر الرمان، ولما قلت له كفى يا حسن وجذبته لنتحرك وقف أمام أنواع من المربات كلها مكتوب تحتها مصدر الصحة والقوة والجمال وتعالج ضعف الذاكرة وفقر الدم وفقدان الشهية. تحت مربة الزنجبيل المسكر كان هناك فيل قوى مرسوم حاملا على خرطومه بطرمان مربى ومكتوب تحته أعظم هدية هندية تعطى الجسم الدفء والقوة والحيوية وطاردة للبلغم والبرد، ثم توقف وقال هل يمكن لأحد أن يشترى ذلك كله؟ ضحكت، وأضاف، أو حتى نصفه، ثم قال ضاحكا حاجة تلخبط، وتحركنا. رأيت إلى الأمام مباشرة درجا صغيرا، ثلاث درجات سلم فقط تؤدى إلى العيادة النباتية، فيها لمحت زحاما كثيرا حقا، وعلى يسار المكان كله طرقة صغيرة تسلمك إلى محل الزيوت. على يسار العيادة النباتية درج خشبى صغير آخر لا يميزه بسهولة إلا المعتاد على المكان، يؤدى إلى الدور الثانى حيث يجلس الطبيب الذى يحدد للمرضى العلاج المناسب. فاجأنى المكان فى بساطته، لأنى كنت هيأت نفسى لأرى مكانا باذخا وثيرا من فرط ما سمعت من أوصاف قالها لى حسن عن المكان وصاحبه العبقرى الذى استطاع منذ سنين طويلة أن يجعله منافسا لمعامل الأدوية والصيدليات. حتى رائحة البخور التى كانت تفوح فى فضاء المكان لم تجعله مميزا. من الذى يطلق البخور إذا لم يطلقها العطار؟

صعدنا الدرج الصغير، فى الحقيقة سأل حسن أحد الباعة عن الطبيب فأشار إلى السلم. لم يكن الدور الثانى مرتفعا كثيرا. وجدنا

غرفة واحدة من زجاج، بها يجلس طبيب شاب فى حوالى الثلاثين، وأمامه أربعة مقاعد خالية. كانت هناك امرأة واحدة تجلس أمام الطبيب تهمس له بشكواها، وهو ينصت إليها باهتمام، ثم كتب لها العلاج المناسب فانصرفت فى صمت. كناقد جلسنا متقابلين. رأيت الطبيب نضر الوجه يبدو فى صحة جيدة حقا.

ـ أهلا وسهلا..

قال الطبيب مرحبا، فاندفع حسن فى الكلام.

ـ حضرتك شفت برنامج أوبرا أمس؟

نظر إليه الطبيب فى دهشة وواصل حسن:

ـ كانت حلقة فيها طبيب أمريكى مشهور، نال من قبل جائزة نوبل، وضع برنامجا للقضاء على الشيخوخة. حضر البرنامج عشرة أشخاص أصحاء تراهم فتقول إنهم فى الأربعين من أعمارهم والحقيقة أنهم تجاوزوا جميعا الستين. لقد عرض البرنامج صورهم قبل العلاج وبعده.

نظر إلىّ الطبيب فوجدنى أبتسم. ابتسم بدوره وقال لحسن:

ـ طيب.. مم تشكو حضرتك؟

ـ أنا لا أشكو. أنا فقط أقول لك إن البرنامج الذى تحدث عنه الطبيب للعودة إلى الشباب كله برنامج غذائى، كان من أهم ما قاله أن يحرص كل إنسان على أكل سمك السلمون والتونة، فهما يقاومان

الترانكليز، التجاعيد، يعنى ـ اضطرب وجه الطبيب لحظة ـ وطلب الطبيب الأميركى من كل شخص أن ينقطع يوما كاملا فى الأسبوع عن متابعة التليفزيون بكل برامجه ونشراته، حتى البرامج الكوميدية، يوم لا يفتح فيه الإنسان التليفزيون. وإن أهم شىء هو المشى، ووك أند ووك أند ووك، قال الطبيب الأميركى ذلك ثلاث مرات. وأثنى كثيرا جدا على الشاى الأخضر. قال إن تناوله باستمرار يخفض الوزن ثلاثة كيلوجرامات فى الشهر، وقال كلاما مهما عن زيت بذر الكتان.. يعنى...

كان ارتباك الطبيب يزداد، احمر وجهه من الخجل، لكنه اضطر إلى مقاطعة حسن وقال:

ـ طيب طيب. طلبات حضرتك.

لكن حسن استمر يتكلم ناظرا لشىء خلف الطبيب لا أراه. قال:

ـ أنا ليس لى طلبات، لكن ما دمت جئت هنا أفضل تكتب لى أى شىء يغسل الكلى. غسيل الكلى لا يضر. أشعر أن جسمى فيه سموم كثيرة ومن المفيد أن يدر الإنسان البول كثيرا فى هذه الأيام، المشكلة فى صديقى الأستاذ أحمد. إنه مثقف كبير. مدير عام أيضا. عنده ضيق فى الشريان التاجى وعنده نقص قليل فى المناعة. نقص المناعة أنا أعرف علاجه، فول الصويا أو زيت فول الصويا والزيت الحار، دائما الزيت الحار، والنوم، «الناب» بالتحديد، أعنى القيلولة، منذ توفيت زوجته لا ينام «الناب». كم سنة الآن يا أحمد.؟

كان ارتباك الطبيب يزداد، خصوصا من الكلمات الإنجليزية التى ينطقها حسن ثم يفسرها، لكنه كان من الكياسة إلى درجة أن لاذ بالصمت، ربما من اليأس. لا أعرف حقا ما إذا كان يستمع لحسن أم يشرد فى شىء آخر واستمر حسن:

ـ توفيت منذ ست سنين. تذكرت. كذلك نومه متقطع فى المساء. حضرتك عليك تخلصه من ضيق الشريان التاجى. أنا أعرف إنك قادر على ذلك. لقد أتيت هنا منذ عشرين سنة وكتبت لى حضرتك علاجا ممتازا.

اتسعت عينا الطبيب الذى لم يعلق على حسن، كتب فى الروشتة شيئين لضيق الشريان التاجى يشربان مثل الشاى وقدمها لحسن مع روشتة غسيل الكلى وقال:

ـ بالشفاء إن شاء الله.

كان هناك أكثر من شخص يقف فى المكان الضيق أمام الطبيب، اثنان فقط منهم وجدا مكانا جوارنا. خفت أن يطيل حسن الكلام أكثر يزهق الذين صعدوا ووقفوا ولم أشعر بهم، وبالطبع ولا حسن.

نهضنا، ما كدنا نصل إلى الباب الذى يفضى إلى السلم حتى التفت حسن إلى الطبيب وقال:

ـ عجيبة، أنا أتيت إليك منذ عشرين سنة، وربما أكثر، كنت تبدو أكبر مما أنت عليه الآن. إلى هذه الدرجة تفيد العطارة؟

لاحظت أن الطبيب ينظر إليه غير مصدق، لكنه لم يتكلم هذه المرة أيضا، انشغل مع الرجل الذى صار أمامه، جذبت أنا حسن من ذراعه ونزلنا الدرج، صار أمامى وأنا خلفه وهو يقول:

ـ أليس غريبا أن يكون منذ عشرين سنة أكبر مما هو عليه الآن؟

* * *

دخلنا أولا قسم الأدوية، اشترينا ما كتب الطبيب، ثم انتقلنا إلى قسم الزيوت، أردت أن أشترى زيت خس وزيت حار وخل تفاح وعسل نحل حضرمى، لكن حسن طلب منى أن أشترى أيضا زيت فول الصويا وزيت جرجير وقال بحماس:

ـ هل تستطيع أن تغسل الجرجير؟ لا تستطيع، أولا لأنه مهما غسلته حتى ولو بالخل يظل فيه طفيليات، ثانيا الجرجير بالذات يحتاج إلى امرأة لغسله، وليس معقولا أن تتزوج مخصوص لغسيل الجرجير. علبة زيت صغيرة كأنك اشتريت بعشرة جنيه جرجير. نقطة واحدة على السلاطة كل مرة. نصف نقطة فى الحقيقة.

ثم جعلنى اشترى أيضا زيت النعناع البرى وزيت المقدونس وقرفة وزنجبيل وشاى أخضر وسأل البائعة الصغيرة فجأة:

ـ هل لديك شىء يزيل الكلف واسوداد البشرة؟

أحضرت له البائعة بسرعة علبة كريم صغيرة، وصابونة مصنوعة من الأعشاب.

راح يقرأ فى صمت مكونات علبة الكريم، التى كانت كثيرة ومكتوبة بخط دقيق للغاية. سألته باسما:

ـ هل لديك صديقة حامل حتى تشترى كريم ضد الكلف. ؟

قال وهو لا يزال يحاول قراءة مكونات الكريم.

ـ فى العمل عندى أكثر من موظفة حامل، كما أن لى قريبا يعيش فى شقة لا تدخلها الشمس، كلما تعرضت بشرته للشمس اسودت ـ ثم وضع علبة الكريم أمام البائعة واستطرد ـ أكثر من عشرة أنواع من النباتات والأسماك من بينها منى الحوت ـ وعاد يأخذ العلبة ويقرأ لى مكوناتها ـ شمع سمك، خلاصة بردقوش، جنين القمح، بابونج، بعثران، هيماميلز، زيت كبد الحوت، منىّ الحوت ـ وقرب منى العلبة وقال ـ أى والله منى الحوت، وأشياء أخرى ـ ثم أعاد العلبة للبائعة وقال ـ من أين تأتون بمنى الحوت؟

اضطربت الفتاه الصغيرة، احمر وجهها، ضحكت الأصغر منها التى تجلس خلف الكيس، فقال:

ـ أنا أسأل جادا.

هزت الفتاة كتفها.. وقلت أنا مبتسما:

ـ من الحوت يا حسن.

قال:

ـ أعرف أعرف لكن هل ظهرت الحيتان أخيرا فى مصر. ؟

وضعت الفتاة مشترواتى فى شنطة بلا ستيك مع زيوت أخرى وخرجنا. عند الباب توقف عند لافتة صغيرة يقرأ وأنا بدورى رحت أقرأ معه «يابن آدم املك من الدنيا كما شئت، لكنك ستعود كما جئت» تبادلنا النظر فى دهشة، كيف حقا يكتب عطار ذلك؟ كنا نفكر فى ذلك معا تقريبا، ضحك وهز رأسه وقال لبائع أمامه، ما معنى هذا الكلام؟ إنكم تذكرون الناس بالموت، كأنكم تقولون لهم لا فائدة. ارتبك البائع ثم ابتسم. قال هى ليست مكتوبة للزبائن لكن للبائعين. لم أفهم ولم يفهم حسن. قال:

ـ سأصعد مرة أخرى للدكتور أسأله ما معنى ذلك.

كاد يعود فأمسكت به من ذراعه وأنا أضحك. اقترب البائع وهمس لنا.

ـ المحل كبير كما ترى، معرض للسرقة من الزبائن أو الباعة أنفسهم، هذه اللافتة لمن يفكر فى ذلك.

لم نقتنع لكننا تحركنا للخروج فى حيرة حقيقية، بعد أن خرجنا من الباب قال حسن:

ـ أنا يا أخى غير قادر على استيعاب شكل الطبيب، كان منذ عشرين سنة فى حوالى الخمسين فعلا. هل يكون الذى رأيته من قبل هو والده؟ مستحيل، أنا متأكد إنه هو، الآن لا يزيد على الثلاثين، أخشى أن نعود بعد عشرين سنة فنجده فى العاشرة من العمر.

ضحكت واستطرد ضاحكا..

ـ هذا إذا عشنا عشرين سنة .

* * *

كان الشارع الذى علينا أن نقطعه عريضا جدا، بدا لى كأنى أراه لأول مرة رغم أننا قطعناه من قبل فى طريق قدومنا إلى المحل، إزدادت حركة السيارات فيه، سيارات من كل نوع، لاحظت كثافة التلوث الحادث من عوادم السيارات، لم تستطع النسمة الباردة التى شاعت فى الجو التقليل منه . كان الظلام قد نزل على الشارع، وكانت الإضاءة فى المحل قوية حتى أنستنى فيما يبدو أن هناك أماكن أخرى سنراها بعد قليل .

رأيت الناس من كل صنف، أفندية وفلاحين، نساء محجبات ونساء سافرات، كهول وشيوخ وشبان وأطفال، دراجات وموتوسيكلات، إسعاف مسرعة تطلق سرينة قوية خلفها عربة مطافئ تطلق سرينتها الأكثر صراخا، قلت مازحا :

ـ عملية إرهابية .

ضحك حسن، استطعنا عبور الشارع، واجهنا مقهى كبير يشغل مساحة طويلة من الرصيف ويستدير معه إلى شارع ضيق على يساره . قال حسن :

ـ أظن أن استراحة فى هذا المقهى ضرورية الآن لأننا سنعود مشيا بعد ذلك . ما رأيك فى كوب قرفة بالزنجبيل . ؟

قلت مازحا :

ـ أريد زنجبيلا بالقرفة .

ضحكنا . أدهشنى أنه لم يكن بالمقهى غير عدد قليل، أربعة، من الرجال المسنين جالسين داخل المقهى نفسه، ولم يكن على مقاعده المصفوفة فوق الرصيف أحد .

أخذنا منضدة على رصيف الشارع الجانبى وجلسنا . وضعنا مشترواتنا على كرسى مجاور . طافت عيناى بالشارع الجانبى فوجدته أكثر جاذبية، بيوته منخفضة، ثلاثة أدوار أو أربعة، مرتفعة نوافذها عالية، شرفاتها واسعة تستدير حول البيت مسيجة بأسياخ فى تشكيلات بديعة، تحت الشرفات زخارف إيطالية وحول كل بيت حديقة، لكن بلا أشجار . أدركت أنه شارع قديم، الحقيقة أن المنطقة كلها قديمة، حتى الشارع العريض الذى قطعناه كانت البيوت على جانبيه زمان مثل بيوت هذا الشارع، لكن الحركة الزائدة وطمع الناس ساهما فى هدمها جميعا . قامت بدلا منها عمارات عصرية قبيحة .

جاء الجرسون إلينا فطلب حسن كوبين من القرفة بالزنجبيل . وقف الجرسون حائرا للحظة ثم قال :

ـ القرفة وحدها والزنجبيل وحده يا أستاذ .

قال حسن مندهشا مغتاظا . .

ـ اخلط ملعقة القرفة بملعقة الزنجبيل . صعبة هذه؟

تأمله الجرسون للحظة ثم هز رأسه وقال ممكن، وانصرف. لكن غيظ حسن ازداد.

- لم تعد هناك قدرة عند الناس على الخيال، الناس صارت مبرمجة على ما تعلمته فى حياتها، تماما كالكمبيوتر، تغذيه بمعلومات يعطيك نتائج، لكن المشكلة أن ما تعلمه الناس فاسد كله - ثم ازداد غيظه كثيرا - أقول للجرسون قرفة بالزنجبيل يقول لى القرفة وحدها والزنجبيل وحده. كأن خلطهما معا يحتاج إلى تصريح من أمن الدولة مثلا.

ثم ضحك وضحكت، أخرج جهاز الضغط من جيبه وقال:

- أنا لازم أقيس الضغط.

وجد ضغطه مائة وأربعين على مائة فقال:

- رفع ضغطى منه لله. أرنى أصبعك.

مددت له يدى فأحاط بالجهاز الصغير أصبعى السبابة وراح يراقبه ثم قال:

- مائة وعشرون على ثمانين. ضغط نموذجى فى سنك هذا. حكاية الشريان التاجى هذه كذبة كبيرة.

لم أرد، انشغلت بالنظر إلى الناحية المقابلة أمامنا مباشرة، كانت هناك فتاة تقف تتحدث مع شاب حديثا هامسا، كانت تبدو مبتهجة جدا، وتضىء ابتسامتها وبياض بشرتها الظلمة أمام عينى. سألنى حسن:

- تعرفها؟

أجبته.

- كل شىء فيها يذكرنى بدنيا. ليست محجبة، ترتدى تاييرا له لون التايير الذى رأيت دنيا فيه آخر مرة، كل حركات يديها وابتسامتها مثل دنيا.

قال حسن:

- يا إلهى. هل كانت دنيا جميلة هكذا؟ إنت خسرت كتير يا أحمد.

ظللت أحملق فى الفتاة حتى قال حسن:

- إنها تشبه سعيدة أيضا. أجل، لو خلعت سعيدة الجلباب الأسود وارتدت تاييرا صارت مثل هذه الفتاة تماما. هل كانت دنيا تشبه سعيدة؟

انتبهت. أدركت أن ثمة ملامح مشتركة بين دنيا وسعيدة حقا، قلت شاردا:

- يبدو ذلك.

انصرفت الفتاة إلى ناحية والشاب إلى ناحية أخرى، حضر الجرسون فوضع بيننا على المنضدة صينية عليها كوبا القرفة بالزنجبيل، وقف ينظر إلى جهاز الضغط الذى وضعه حسن على المنضدة ولم يعده إلى جيبه بعد..

ـ ما هذه اللعبة؟

ابتسمت، نظر إليه حسن مندهشا فواصل الجرسون.

ـ رأيتك تضعها فى إصبع الأستاذ. أول مرة أرى شيئا كهذا.

قال حسن:

ـ هات إصبعك.

تردد الشاب فقال حسن:

ـ لا تخف. هذا جهاز حديث لقياس الضغط

مد الشاب يده فأحاط حسن إصبع السبابة بالجهاز، وقف الشاب خائفا ينظر إلى الجانب، وحسن يبتسم فى دهشة من خوف الشاب ثم قال له.

ـ مائة وعشرة على ثمانين. نموذجى. رغم أنك رفعت ضغطى.

ابتسم الشاب وانصرف، أخذنا نحتسى القرفة مع الزنجبيل فى صمت حتى قال حسن:

ـ أمس فتحت الإنترنت على أحد مواقع التغذية فوجدت معلومة أزعجتنى جدا، المعلومة تقول إن الإنسان يجب عليه أن يأكل من منتجات المكان الذى ولد فيه، فالجسم يكون أكثر انسجاما معها من انسجامه مع منتجات أى مكان آخر.

ـ لماذا انزعجت؟

ـ لأن أصولى من الأناضول.

ضحكت بقوة. قال وهو يبتسم:

ـ هل علىّ أن أعود وآكل من الأناضول؟ كيف أحقق ذلك؟ صدقنى خفت أن تداهمنى الأمراض فجأة، يكون كل ما أكلته فى حياتى هنا سموما بطيئة المفعول.

قلت:

ـ اسمع يا حسن. أنا من رأيى تكف عن الدخول إلى الإنترنت. تبتعد عن الكمبيوتر تماما.

سكت قليلا ثم قال:

ـ يبدو أننى سأفعل ذلك حقا. ليس لهذا السبب، لكن لأنى أجد كل شىء سهلا وطيعا فى الجهاز. العالم كله ينفتح أمامك، ثم بعد ذلك أجد كل شىء حولى فى الحياة فى الاتجاه المعاكس. حتى الجرسون لم يشأ خلط الزنجبيل بالقرفة إلا بعد أن أرشدته.. من هنا ضرورة أن أشترى كلبا.

ضحكت، فوجئنا برجل مسن من الجالسين داخل المقهى يقف أمامنا ينظر إلينا فى خجل، فى البداية ظننته طالب إحسان لكنه قال لحسن:

ـ ممكن أقيس ضغطى يا أستاذ. الجرسون يقول إن معك جهازا عجيبا.

جاء خلفه الثلاثة المسنون الآخرون، راح حسن يقيس ضغط كل منهم، ويعلن درجاته التى كانت مرتفعة قليلا، عادوا إلى مقاعدهم بعد أن انبهروا بالجهاز الصغير، أبدوا سعادتهم به وسألوا عن المكان الذى يبيعه، أرشدهم حسن، قال لى بعد أن انصرفوا:

ـ اشرب بسرعة، الخبر سينتشر وستجد الناس طوابير بعد قليل، أجل، تكفى الحركة فى هذا الشارع الذى أمامنا لترفع ضغط جميع السكان والمارة والقطط الضالة أيضا.

ضحكت، وقف يضع الجهاز فى جيب الجاكيت ويقول:

ـ سأذهب إلى دورة المياه.

دخل إلى المقهى وأنا أفكر فى الغبطة التى شملته وهو يقيس ضغط رواد المقهى، ويعطيهم النصائح اللازمة فى حالة الارتفاع المفاجئ، ويصف لهم النباتات المفيدة، ويعيد عليهم كثيرا جدا مما حفظته أنا منه من قبل.

انتهيت من مشروبى وظل مشروب حسن كما هو لم ينته، لم يعد حسن، طال الوقت به فى دورة المياه حتى جاء الجرسون يطلب الحساب فأعطيته، ثم رأيته يرفع الكوبين معا فوق الصينية ويحمل الصينية وينصرف.

قلت:

ـ انتظر. اترك كوب زميلى.

نظر إلىّ بدهشة، ثم قال:

ـ زميل حضرتك خرج منذ دقائق من دورة المياه، رأيته يبتعد عن المقهى.

ـ ربما ذهب يشترى شيئا وسيعود.

أعاد الجرسون كوب حسن ودخل إلى المقهى، انتظرت نصف ساعة ولم يعد حسن...

* * *

قلت لسائق التاكسى فجأة «قف هنا» توقف ونزلت، جذبتنى الحديقة المضاءة التى يملأ نورها الميدان كله، ضوء باهر يخطف الأبصار، الناس كثيرون فى ملابس جديدة ملونة، مهرجان من الألوان كأننا فى صباح يوم عيد، فتيات تضحكن وفتيان يجرون سعداء ورجال ونساء على المقاعد يتناجون، أم سعيدة بائعة الشاى فى ملابس جديدة لا معة وجهها مزدان بالأصباغ البيضاء والحمراء تتحرك مرحة بين الناس، بائعة الحلوى فى فستان جديد وزوجها فى حلة جديدة، على فرش الحلوى أيضا مسجل يبث موسيقى راقصة هادئة وحولهما يتحلق الأطفال، الرجل يبيع لهم والمرأة تقبل كل منهم بعد أن يشترى، وثلاث سيارات ميكروباص ملونة يقف جوارها السائقون فى بذات سوداء لامعة علقوا فى جيوبها العلوية الورود الصغيرة وفى يد كل منهم بايب ينفث دخانه باستمتاع وفخر، على سور الحديقة ارتفعت أعلام ترفرف، سعيدة تتحرك حاملة صينية الشاى والقهوة ضاحكة ترتدى

فستانا أبيض ذيله فضفاض ضيق عند الخصر، فتبدو فى حركتها مثل باليرينا حقيقية، فراشة فرحانة بالنور المنسكب فى كل مكان، اقتربت منها فرأيت وجهها مشرقا، زججت حاجبيها وأطالت رموشها وصبغت شفتيها بالأحمر الخلاب قالت لى قبل أن أتكلم :

ـ الحاج حسن يلعب مع الأطفال .

أشارت إلى نهاية الحديقة، أسرعت إليه فوجدته يدور فى دائرة صغيرة وفى فمه زمارة والأطفال طابور يمسكون فى بعضهم وفى ظهره ويزمرون معه ويضحكون، رآنى فهتف .

ـ كيف عرفت أنى هنا . ؟

ابتسمت . قلت :

ـ لم أعرف .

قال :

ـ رأيت الحديقة مضاءة مثلى نزلت من التاكسى؟

قلت :

ـ أجل . قل لى أنت لماذا تركتنى؟

ضحك وقال :

ـ خرجت من دورة المياه فنسيت أنك معى، ركبت التاكسى وجئت هنا .

كان يتحدث وهو يدور، والأطفال خلفه يزمرون ويضحكون . هتف :

ـ انضم الينا .

هززت رأسى مبتسما فى دهشة، أردت أن أقول له شيئا ضاع فجأة من رأسى، اجتهدت أن أستعيده وأنا أتطلع إليه فلم أستطع، شىء نسيته بمجرد أن فكرت فيه، فيما بعد أدركته، كنت أريد أن أسأله هل انفجر ضوء فى رأسه كما جرى لى حين لم أتعرف على البيت ووقفت أمامه حائرا، قلت :

ـ سأنتظرك على المقعد جوار سعيدة .

جلست لحظات فوجدته يعود إلىّ ضاحكا، كان عرق قد بدأ يتفصد على وجهه وجبهته وعنقه رغم برودة الجو . . جلس جوارى وقال :

ـ مشهد عجيب رغم أننا لسنا فى عيد .

قلت وأنا أعطيه الشنطة البلاستيك الصغيرة .

ـ نسيت مشترواتك معى .

هتف وهو يضرب جبهته بيده كمن يتذكر شيئا هاما . .

ـ يا إلهى لقد كنا عند العطار .

ـ ما سر سعادة هؤلاء الناس جميعا الليلة؟

سألته فجأة فأجاب :

ـ لا أعرف، سألت بعضهم فلم يعرف، كم الساعة معك؟

قلت:

ـ توقفت منذ لقائنا السابق.

قال:

ـ تعرف أجمل ما سيحدث اليوم لى؟

ـ لا.

ـ حين أعود ستسمع أمينة صوت وقع قدمى على السلم وستفتح لى الباب قبل أن أدق الجرس.. كانت تفعل ذلك دائما زمان.

ابتسمت، قال:

ـ صعب أن تظل ثلاثين عاما تصعد إلى الدور الخامس وتنزل منه كل يوم، أليس كذلك؟

قلت:

ـ هيا بنا يا حسن.

مشينا، يتلفت حسن بين لحظة وأخرى إلى الحديقة، حتى قطعنا الميدان، صرنا على الرصيف الموازى للكورنيش، كان الضوء الذى انسكب علينا فى الحديقة لا يزال يمشى معنا، لاحظت أن المنازل كلها مضيئة، مصابيح الشارع العالية تفرش نورها فى الفضاء كله، تنعكس الأضواء على السيارات المتحركة أو المركونة، وتظهر ظلال السيارات

الواقفة على الأرض وكذلك ظلال البيوت الصغيرة، بينما ترمح ظلال السيارات المتحركة معها إلى جوارها. على الرصيف قابلنا بشرا سعداء، أفواجا من البشر يأتون فى اتجاه الحديقة، نساء جميلات، وبنات مضيئات، ورجالا أقوياء، وأطفالا مرحين، الكل يحمل زهورا فى يده، من النوافذ كانت تأتى إلينا رغم اتساع الشارع ضحكات مبتهجة، وموسيقى راقصة، حتى إذا وصلنا إلى قسم البوليس لم نلحظ وجوده، وجدت نفسى أسرع على إيقاع هذه البهجة المنسكبة حولى، وأسرع حسن معى، شيئا فشيئا راحت الأنوار تتراجع، الناس تقل، أصوات الموسيقى تخفت، ثم اختفى كل شىء، لم يعد ثمة شىء أو أحد غيرى أنا وحسن نقترب من مكان الافتراق، رأيته يرتعش مثل طفل سعيد ويقول شاردا:

ـ أنا متأكد إن أمينة ستسمع صوت وقع قدمى على السلم الليلة وستفتح لى الباب قبل أن أدق الجرس....

[١٠]

كيف اكتشفنا برج بابل؟

أو

لماذا أعطى حسن الكلبين لأبى صفيحة؟

أمضيت الأيام التالية أتلقى تليفونات من حسن فى كل وقت، بالليل والنهار يحدثنى فيها عن المواقع التى يزورها على الإنترنت وتتحدث عن الكلاب. لقد وافقت له أمينة فى النهاية على شراء كلب بشرط أن لا تتخلى عن القطط، وحذرها من استحالة التعايش بين القطط والكلاب، وأنها ستكون مسئولة عن التقريب بينهما، أو . . . . . عليها أن تستعوض الله فى القطط . فى لحظة راقت له فكرة توليف الكلب على القطط والتزاوج بينها، لكنه أخر البحث فى الإنترنت عن نتائج هذا التزاوج حتى يشترى الكلب ويرى ماذا سيحدث. .

كذلك تلقيت تليفونات كثيرة من فادية تشتكى الوحدة والمعاناة، من انهيار عصبى يتكرر كلما تذكرت أن دنيا كانت معنا فى ساعاتها الأخيرة، فى كل مرة أقرر أن لا أرد عليها أنسى وأرد، فى كل مرة أنظر فى شاشة التليفون لأرى رقم الطالب، أتأكد أنه رقمها، أقرر أن لا أرد لكنى أرد، تمتد يدى ترفع السماعة إلى أذنى فى اللحظة التى أقررفيها الابتعاد عن التليفون. لكنى استطعت أن أرفض أى محاولة للقاء معها، فى النهاية تباعد الوقت بين تليفوناتها لى، ثم لم تعد تتصل.

راقت لى فجأة فكرة شراء الكلب، قررت أن أذهب مع حسن إلى السوق.

* * *

فى التاكسى راح حسن يعيد علىّ المعلومات القيمة التى خرج بها من زياراته إلى مواقع الكلاب فى الإنترنت، رغم أنه حدثنى عن هذا كله فى مكالماته التليفونية، كنت أسمعه كما لو كان لأول مرة. قال حسن كلاما كثيرا عن تاريخ الكلاب على الأرض، تاريخ استئناس الإنسان لها، كيف ترى وتسمع وتشم، كيف أنها تجمع المعلومات بالذات من خلال حاسة الشم التى تزيد على مليون ضعف فى قوتها عن قوة حاسة الشم عند الإنسان، أما اللمس فهو باب الجراء إلى العالم فى الأيام الأولى بعد الميلاد، فالجرو يعرف مكان أمه أو إخوته باللمس، ويدرك أن لكل منها ملمسا مختلفا، حتى يرى بعد أسبوعين، فالجلد هو عضو الحس الرئيسى فى الكلاب، والأقدام من أكثر المناطق حساسية، لكنها كثيرا ما تفتقد حساسيتها بسبب المشى على الأرض الخشنة، ومن ثم فكل الكلاب المصرية تقريبا فاقدة لحساسية القدمين، قل لى أين هى الأرض الناعمة أو الخضراء فى مصر. ولأن حساسية الكلاب فى جلدها فمن المهم جدا لصاحب الكلب أن يربت كثيرا عليه ويمشى بيده على رأسه وجسمه حتى ذيله، فهذا يعطى الكلب شعورا كبيرا بالأمان، عندما يأمن الكلب يأمن صاحبه، طبعا. والكلاب تتكلم، أجل، لديها لغة خاصة، فمن عيون الكلب وحركتها

تعرف ماذا سيفعل، من أذنيه اللتين إذا ارتفعتا إلى أعلى فيعنى ذلك أنه مستاء ويستعد للهجوم، إذا ارتخت عضلات الفم واللسان فالكلب مطمئن، كذلك إذا لعق صاحبه بلسانه، أما إذا انسحبت الشفاة إلى الخلف وظهرت الأسنان فهى الكارثة. إذا أحبك الكلب ورآك فإنه يستلقى على الأرض ويدور حول نفسه، ويفعل ذلك مع الكلاب التى يحبها أيضا، هنا تدخل السائق وقال «لكن لا مؤاخذه دا يبقى كلب غير محترم» ضحكنا وسألنى حسن فجأة:

ـ لقد سبق وحدثتك عن هذا كله، وأكثر أيضا، فلماذا تتركنى أعيده؟

ارتبكت، قلت:

ـ بصراحة يا حسن نسيت.

هتف مندهشا:

ـ إذن كيف ستشترى الكلب؟

قلت:

ـ ابنى سيتولى تربيته، أنا فقط سأصاحبه.

قال:

ـ لا. لابد أن تعرف الكثير عن الكلاب، هذا هام جدا، يمكن أن يأكلك الكلب..

ارتبكت وكنا وصلنا إلى السوق .

* * *

السوق بين المقابر ، هكذا قال السائق وهو يتوقف لنترك التاكسى . فى نهاية هذا الشارع ، هكذا أردف .

أول ما قابلنا زحام شديد على اليسار ، عدد هائل من الرجال والشباب والصبية يقفون فى مكان ضيق جدا ، جزء من الرصيف وجزء من الشارع ، كانوا جميعا تقريبا يحملون أقفاصا صغيرة بها طيور ، عصافير بأنواعها وبلابل ويمام ، بينهم باعة لأنواع مختلفة من طعام هذه الطيور ، الجميع فى صمت لا تسمع حتى شقشقة العصافير . كان الوقت ظهرا ، صلاة الجمعة تنطلق من ميكروفونات عديدة تحيط بالمكان ، أصوات الصلاة عالية ، مختلطة بحيث لا تستطيع أن تفسر شيئا منها ، ضجيجها يملأ الفضاء فوقنا وحولنا بطريقة جعلتنا لا نستطيع أن نتوقف ، لأنها كانت أيضا تتقاطع مع أصوات السيارات الميكروباص ونفيرها ، السيارات الواقفة ، والتى تحاول أن تشق طريقها وسط الزحام ، وأصوات المنادين الذين عادة لا ينتظرون حتى يصعد الركاب إلى السيارة ، بل يعلنون بصوت عال عن المناطق التى تصل إليها السيارات . كان حولنا لغات عديدة ، أجل ، فأصوات المنادين من الأرض ، وأصوات الشيوخ المختلطة من الفضاء ، جعلتنى غير قادر على السمع ، على الإدراك ، قال حسن ، لقد سلط إله بابل الطوفان على سكان بابل ، الذين كثرت لغاتهم وعلا ضجيجهم وصار يبلبل

الإله القديم الذى لم يعد قادرا على الإنصات ، هكذا تقول الأساطير البابلية ، ثم ضحك وقال قادر ربنا أن يرسل صواعق من السماء ، ويفجر ماءه من الأرض ، أجل ، هذا فساد عظيم فى طاقة الكون .

دخلنا إلى الشارع الذى أشار إليه السائق ، لم يكن إلا هو أمامنا . فى الحقيقية كنت أسرع لأبتعد أقصى ما يمكن عن الضجيج ، لم يبد أن حسن تأثر كثيرا مثلى ، قال لى إنه يعيش المأساة كاملة للأسف كل صلاة ، فحول منزله خمسة مساجد ، تنطلق كلها فى الأذان عبر الميكروفونات لكن ليس معا ، دائما هناك عدة ثوان بين بداية مسجد وآخر ، بعد لحظة لا تميز أى كلمة من الأذان ، تختلط الكلمات فى الفضاء بين وحول المساجد الخمسة ، بعد الأذان تبدأ الصلاة ، ينخفض الصوت قليلا ، لكن يظل هذا التداخل يصنع ضجيجا مضجرا ، ولا أحد يستطيع أن يمنع أحدا ، أو حتى يطلب من المساجد أن تضبط نفسها على توقيت واحد . قال بعد أن ابتعدنا قليلا وصرنا بين المقابر هل فعلا تبلد إحساسى؟ لكن الهدوء الذى بدأنا نشعر به بعد أن دخلنا وسط المقابر بدا لى غريبا حقا ، بعد أن كانت بداية الشارع مضجرة . قال لى حتى لو جئت فى منتصف الليل إلى أول الشارع ستشعر بالضجر ، فالطاقة التى انتقلت من الناس إلى الأرض والبيوت لابد أن تنطلق من جديد ، وهى طبعا تنطلق بعد أن تنتهى طاقة الناس ، لذلك فهذا المكان لن يمكن إصلاحه أبدا أو ترتيبه . أما هواة وبائعوا العصافير فهم لا شك ينتمون إلى زمان آخر ، لم تتبلد أحاسيسهم فقط ، يئسوا ، ماتوا أحياء ، يئست عصافيرهم فلم تسمع لها صوتا ، لم تعد تتحرك .

إنها عصافير مسكينة تذهب إلى حتفها، وهؤلاء الشيوخ الذين يزعقون فى المساجد أساءوا لحق الله، لمعنى الصلاة، الخشوع والتبتل، والسائقون الذين يطلقون نفير سياراتهم والمنادون أساءوا لحق الجماد، الأرض والبناء، أن ينعم بالهدوء. لماذا لا يتم تنظيم الأذان والصلاة بحيث يسمح لجامع واحد فقط فى كل منطقة بالميكروفون؟ لا أحد يستطيع أن يأخذ هذا القرار، وتكتمل المأساه عند الفجر حيث يفزع الأطفال النيام، أنا نفسى أفزع يا رجل حين تنطلق الميكروفونات الخمسة. ولا أحد فكر حتى في تنظيم الفوضى هنا في حركة السيارات والناس.

حين بدأنا نسمع صوت الصلاة من جامع صغير بين المقابر وجدنا الصوت مريحا، عذبا شجيا، لابد أنه شعر بذلك لأنه قال، هذا جامع واحد صغير، خضعت الطاقة فيه إلى طاقة الصمت التى تشمل المكان حوله، لو دخلت سترى الشيخ يزعق بأعلى صوت، لكن طاقة الصمت حول الجامع تمتص هذا الزعيق، بل يتحول الصوت إلى مساحة من الراحة كما أشعر، أليس كذلك؟ لا أحد يريد أن يعرف أن قيمة المساجد ليست فى أنها مكان تؤدى فيه حق الله فقط، إنما مكان تأخذ فيه حقك من الراحة والأمل.. ورغم أن الله يسمع دبة النملة، فالشيوخ يصرخون فى الميكروفونات، هل يتصورون أن الله بعيد جدا، إنه قريب جدا، أقرب من حبل الوريد، أليس هذا كلام الرسول؟ لكن لا فائدة، يتصورون أن الناس طرش، أنا صرت أطرش، أغلق أذنى حين تنطلق الميكروفونات دون نظام، وليتها أصوات طيبة، تصور أنت خمسة أصوات فظيعة تنطلق وراء بعضها. كان حول الرسول عشرات

يمكنهم الأذان، لكنه اختار بلال بن رباح فقط، لأنه أحسنهم صوتا، إلى أين سيذهب هؤلاء الناس بنا وبديننا. أستغفر الله. المهم، دعنا نتشرب طاقة الصمت بين المقابر، ستنفعنا كثيرا فيما بعد تصور. لم يعد في مصر مكان هادئ إلا المقابر!!

* * *

مشينا طويلا صامتين، لا أحد يقابلنا فى الطريق، قليلون يأتون من خلفنا يسبقوننا فى طريقهم إلى السوق، بعد مسافة ليست قصيرة من الصمت الكامل، رأيت الشارع يكاد ينسد من الزحام، لابد أن حسن لا حظ ارتباكى لأنه قال:

ـ لا تنزعج، حتى هذا السوق لا يستطيع أن يهزم طاقة الصمت. مساحة المقابر كبيرة جدا.

مشيت معه، لم نكن نمشى فى الحقيقة، كنا نتحرك ببطء شديد بين الزحام، المسافة بين الباعة على اليمين واليسار واسعة، هى التى نمشى فيها، لكن إذا نظرت على امتداد البصر تخال الناس موجا وراء موج، كذلك إذا نظرت إلى الخلف. لقد نظرت واندهشت إننا قطعنا كل هذه المسافة فى الزحام بلا ضجر. أصوات الباعة عالية لكنها لا تخدش الفضاء، لا تضجرنى، ليس هناك شىء محدد يشترك فيه الباعة. هنا كل شىء، ملابس قديمة وملابس جديدة، أحذية جديدة وأحذية مستعملة، سودانى، لب، حلوى، أوان زجاج، دراجات صغيرة، مخلفات القصور من لوحات وشمعدانات ومشكاوات، مصنوعات جلدية وبلاستيكية، أوراق كراسات، كتب، أقلام، سيديهات،

شرائط فيديو، شرائط تسجيل، أجهزة كهربائية، أشياء بجنيه واحد، أشياء بألف جنيه، باعة مشروبات وأطعمة، بين الحين والحين بائع ثعابين، أو صقور، أو سلاحف، عند بائع سلاحف توقف حسن وسأله بصوت عال:

ـ هل تعرف فائدة السلحفاة فى البيت؟

كان البائع صبيا صغيرا، قال بلا مبالاة.

ـ زينة.

قال حسن:

ـ لا. أنت لست بائع سلاحف.

ثم نظر لرجل يقف قريبا من الصبى وسأله.

ـ حضرتك صاحب السلاحف؟

أجاب الرجل بالإيجاب، سأله حسن السؤال السابق فقال الرجل:

ـ السلحفاة تجلب الحظ، البيت الذى فيه سلحفاة لا ينقطع منه الخير أبدا.

أشار حسن إلى الصبى وقال:

ـ سمعت، الآن بعد أن عرفت هذا ستكون بائع سلاحف.

تركه ومشينا، لمحت الصبى يبتسم مندهشا، ثم توقف حسن وقال:

ـ ما رأيك أن نشترى سلحفاة. . ؟

قلت:

ـ أنا لم أتعود عليها.

قال:

ـ المسالة لا تحتاج إلى تعود، تضع السلحفاة فى الحجرة وتتركها. تنساها، لو وضعت لها حزمة خس تكفيها سنة، فى الشتاء تسكت، لا تأكل ولا تشرب شهورا طويلة، ليست متعبة أبدا، الذين عندهم سلاحف لا يتذكرونها.

فكرت لحظة أن أشترى سلحفاة حقا، جذبنى حسن من ذراعى وعاد بى إلى البائع، سالته عن ثمن السلحفاة، فقال عشرين جنيها. حاول حسن يشتريها بعشرة جنيهات لكن البائع رفض، فسأله حسن:

ـ طيب، هل معك كارت؟

قال الرجل:

ـ معى.

أخرج من جيبه كارتا أعطاه لحسن الذى وضعه فى جيبه وقال:

ـ حتى إذا احتجت إلى سلحفاة كلمتك ترسلها لى، إن شاء الله سأحتاج أكثر من سلحفاة.

مشينا، أمام محل أسماك الزينة توقف فجأة وهتف:

ـ الله، لا يوجد شيء فى العالم يبعث على الراحة مثل إكواريوم فى البيت، تعال تعال.

أخذنى من يدى واتجه إلى المحل الذى كانت مياه كثيرة مدلوقة أمامه تجعل الأرض زلقة، دخلنا بصعوبة، لاحظ حسن وجود أسماك بلاستيكية صغيرة حول الأسماك الحقيقية فى أحواض السمك. ابتسم وقال للرجل:

ـ هل يمكن شراء فيش تانك بدون أسماك بلا ستيك؟

قال الرجل:

ـ طبعا.

قال حسن:

ـ لماذا إذن تضع الأسماك البلاستيك. ؟

قال الرجل

ـ زينة فقط.

قال حسن:

ـ بصراحة شكلها وحش.

قال الرجل مندهشا.

ـ أنا أعرف، لكن الناس أذواق.

سأله حسن:

ـ طيب معك كارت؟

ـ طبعا.

قال الرجل ذلك وأخرج من جيبه كارتا قدمه لحسن الذى قال:

ـ أنا أرى إن الفيش تانك عندك مودرن جدا، أنا أريد فيش تانك مطعم بالأخشاب والزخارف الشرقية، سوف أتابع الاتصال بك حتى إذا توفر عندك واحد ترسله لى، لكن بأسماك حقيقية.

ـ تحت أمرك.

قال الرجل ذلك ولم تختف الدهشة من فوق وجهه، مشيت وأنا أضحك، رآنى حسن فضحك وقال:

ـ فى اللحظة التى تشعر فيها أن البائع سوف يصطادك اسأله عن الكارت وامشى ـ وسكت قليلا ثم قال ـ من يدرى، ربما فعلا أحتاج إليه..

مشينا حتى اندفع حسن إلى ركن عاديات صغيرة.

ـ الله! تعال نتفرج على بقايا القصور.

وقفنا نتفرج، كنت أشك فى أنها مخلفات قصور، فلقد مضى أكثر من نصف قرن على زمن القصور، صار من الصعب أن تجد شيئا منها فى الأسواق، كنت أراها منتجات شعبية مضى عليها بعض الوقت،

لكن حسن أمسك بشمعدان نحاسى ثقيل واضح أنه أخذ وقتا طويلا من صانعه .

ـ بكم هذا؟

سأل البائع فأجاب .

ـ بألف وخمسمائه جنيه . .

تردد حسن لحظة ، اهتزت شفتاه كعادته حين يتردد ثم قال :

ـ سبعمائة جنيه .

اتسعت عينا الرجل ، بدا أمامنا يفكر بسرعة ، لابد أن حسن أدرك ذلك فقال على الفور وهو يمسك بشمعدان آخر .

ـ الاثنين معا .

أمسك الرجل بالشمعدان من يده ، أخذه على مهل ثم وضعه مكانه فى ضيق مكتوم ، لكن حسن سأله :

ـ معك كارت .

أخرج الرجل الكارت على مضض من جيبه قدمه إليه ، فقال حسن :

ـ إن شاء الله سأتصل بك فى أقرب فرصة ، سأسأل عما عندك ، إذا أعجبنى شىء سأطلب منك إرساله على العنوان .

ابتعدنا فضحك ، قلت :

ـ أوشك الرجل يوافق على السعر .

قال :

ـ لذلك أمسكت بالثانى ، خفت أن يوافق أيضا فطلبت الكارت .

مشينا وصار مع حسن أكثر من عشرة كروت ، حتى وصلنا إلى نهاية السوق ، هنا المكان المخصص لبيع وشراء الكلاب .

* * *

خيالى جعلنى أراه أرضا فسيحة منبسطة لا نهاية لها ، أصحاب الكلاب وكلابهم على مسافات متباعدة على الجانبين ، بحيث يرى المشترون الكلاب بهدوء وعلى مهل ، يختبرونها ويفحصونها ، لكن الذى وجدته مساحة صغيرة من الأرض لا يزيد طولها على عشرة أمتار وعرضها أقل من ذلك ، الكلاب قريبة جدا من بعضها ، المارة يحفون بها غالبا ، ولولا تحذيرات أصحاب الكلاب لوقعت حوادث ، فبعض الكلاب جعلها ضيق المكان وأصوات النباح الذى لا ينقطع للكلاب الصغيرة ، تتشرس ، وتتربص بأى شخص لتعضه لولا أن أصحابها يشدون الطوق الذى هو حول رقبتها بقوة لا تجعلها تبعد عنهم . الكلاب الصغيرة كانت أكثر عددا ، وفى الوقت الذى وقف فيه حسن يناقش أحد الباعة فى نوع الكلب وسعره رأيت أنا كلبين كبيرين من نوع البلاك جاكيت ، كما قيل لى ، يمارسان طقسهما العاطفى ، صاحبا الكلبين يقفان ممسكين بحزاميهما ، ويحذران الناس من الاقتراب منهما . رأيت الكلب الذى على ناحيتى يلهث بصوت هادئ ، شيئا

فشيئا يتدلى لسانه، ثم سال لعابه ولم ينتهيا بعد. أردت أن أبتعد فاقتربت من كلب يقف أمام شاب يشاكسه بكف يده، فيقفز الكلب ليعضه لكن صاحبه يشده من اللجام إلى الخلف والكلب ينبح بصوت قوى أخافنى حتى أننى طلبت من الشاب أن يكف عن المشاكسة فقال لى مندهشا إنه يشرّس الكلب، قلت هل من الضرورى أن تشرسه هنا بين الناس وفى هذا المكان الضيق؟ لاحظت أن أصحاب الكلاب ينظرون إلىّ بإشفاق، لقد أدركوا أننى لا أعرف شيئا عن الكلاب ولا عن السوق، تركنى الشاب الذى عاد إلى عمله لتشريس الكلب الذى لم ينقطع صوت نباحه القوى.

ظل الكلبان البلاك جاكيت يمارسان طقسهما العاطفى لمدة طويلة، لأنى حين التفت إلى حيث يقف حسن مع أحد الباعة لاحظت أنهما على وضعهما، اقتربت من حسن الذى كان قد وقف أمام كلب دوبرمان يناقش صاحبه:

ـ عمره كم الدوبر مان هذا ؟

ـ شهران.

ـ شكله أكبر من شهرين.

ـ هذا دوبر مان، يكبر بسرعة شديدة. الدوبر مان يعتبر أحسن كلب حراسة فى العالم.

ـ أعرف، لكنه شرس.

ـ جدا.

ـ يمكن أن يأكل أصحابه إذا بلغ خمس سنوات.

ـ يمكن، وإن كنت لا أصدق هذه الحكاية.

ـ لا. لا. حكاية صحيحة، أعرف عائلات كثيرة أكلها الدوبر مان، أكل الأولاد والأم والأب.

نظر البائع إلى حسن بدهشة شديدة، لم يرد، فجأة راح يهتز بالدعاء إلى الله لحظات، ثم عاد إلى حسن وقال:

ـ يمكن أن أبيعه لك بسعر رخيص..

كان هناك خلف البائع مجموعة أقفاص حديدية فوق بعضها، فى كل منها كلب صغير، جرو، أشار حسن إلى كلب من نوع البوكسر وقال:

ـ عندك بوكسر كتير.؟

ـ اثنان فقط.

ـ البوكسر أحسن من الدوبر مان، أليس كذلك؟

أجاب الرجل

ـ ألطف فقط.

ـ صاحب صاحبه، يمكن أن يمشى مع صاحبه مسافات طويلة فى الغابات.

ـ طويلة جدا .

ـ لكن ليس فى مصر غابات!

قال حسن ذلك فارتبك الرجل، ضحكت أنا بدورى واستطرد حسن :

ـ ولا شوارع، هناك شواطئ لكن بعيدة، ليس معقولا أن يسافر الواحد إلى الإسكندرية أو بورسعيد كلما أراد أن يمشى بالكلب .

ثم أشار لى وقال :

ـ أحمد يحب البوكسر، أصله من إسكندرية، يمكن أن يعود ويعيش هناك، لكن هل يترك أولاده من أجل البوكسر؟ مستحيل .

بدا الرجل مرتبكا أكثر، شرد عن حسن وراح يتلو مرة أخرى أدعية دينية بصوت عال للحظة ثم عاد وقد صار أكثر هدوءا وقال مشيرا إلى الكلب :

ـ لكنه شرس أيضا، إذا كبر لابد من كمامة على فمه .

ـ كل الكلاب إذا كبرت لابد من كمامة على فمها، بالذات الوولف والدوبر مان والبول دوج والبوكسر .

تردد الرجل لحظة ثم سأل حسن :

ـ حضرتك مربى ؟

ـ لا . هاو، معك كارت . . ؟

ـ لا والله .

ـ خسارة .

ـ أنا هنا كل جمعة .

ـ إن شاء الله سنمر عليك الجمعة القادمة .

بدا لى أن حسن لن يشترى، أنا أيضا بدأت أفكر فى ذلك .

سألت حسن :

ـ لماذا تراجعت عن الشراء؟

قال وهو ينظر إلى بعيد .

ـ أنا مرتبك، لا أعرف أى نوع يصبح شرسا بعد خمس سنوات ويأكل أصحابه .

ـ الرجل قال الدوبر مان .

ـ أنا الذى قلت .

ـ لكنه وافقك وكان يمكن أن يقول لا ليبيع بضاعته .

ـ عنده كل الأنواع .

أحسست بالحصار، قلت :

ـ على أى حال خمس سنوات وقت لا يزال بعيدا . .

وقف يفكر لحظة، بدا يفكر بعمق، قال :

ـ هل ستشترى دوبر مان أيضا؟

قلت :

ـ أنا أفضل الوولف .

ابتسم ، قلت :

ـ طول عمرى أسمع اسمه ، يبدو أنه مألوف عند المصريين .

قال :

ـ إذن هيا بنا نشترى ، لن أسأل مرة أخرى .

دفعنا خمسمائة جنيه فى كلبين صغيرين ، عمر كلاهما لا يتجاوز الشهرين ، أحدهما دوبر مان والثانى وولف . اشترينا أيضا طوقين جلديين بخمسين جنيها وأخذنا الكلبين ، كل منا سحب كلبه الصغير فى طوقه .

ما كدنا نتحرك بعيدا عن سوق الكلاب ونخترق السوق الكبير عائدين ، حتى أخرج حسن من جيب جاكيتته نظارة سوداء غامقة ووضعها على عينيه . .

ـ كيف يقودك كلب وأنت بصير ؟

ضحكت ، كان الكلبان فى الحقيقة خلفنا نشدهما شدا فيجريان فى كل ناحية ، وكاد أكثر من واحد من رواد السوق أن يصطدم بهما .

ـ سيعرف الكلب من الآن أن أمامه عملا هاما . .

صارت العودة وشق الصفوف فى السوق صعبة الآن بسبب الكلبين ، قلت :

ـ هل يمكن أن أحمله . ؟

هتف :

ـ إياك ، لم يعرفك بعد ، سينبح ويرهقك إن لم يعضك .

ـ الزحام شديد يا حسن .

ـ ننتهى من السوق ونأخذ تاكسى إلى الحديقة .

ـ الحديقة . . لماذا؟

تساءلت فى دهشة ، قال :

ـ أولا نستريح ، ثانيا يتعود الكلب عليها حتى يقودنا إليها ، هل تعرف مكانا آخر نذهب فيما بعد إليه .

لم أرد .

* * *

رأتنا أم سعيدة ندخل الحديقة نجر الكلبين جرا فهتفت .

ـ بسم الله ما شاء الله ، كلاب شكلها حلو . .

جلسنا على مقعد قريب من الموقد . . جاء الولد الأسمر ابن سعيدة جاريا ناحية كلب حسن فحجزه حسن بذراعه وقال :

ـ ابعد عنه ، هذا شرس .

ثم قرب الكلب إليه جدا ، وبدأ يمشى على جسمه بيده ويهدهده على رأسه .

نظر إلىّ وقال :

ـ لا تكف عن مسح الكلب بيدك طول الجلسة حتى يألفك . . من الآن عليك أن تتبع عادات جديدة فى البيت .

قلت فى دهشة :

ـ عادات جديدة . كيف ؟

قال :

ـ يعنى لا تترك فى طريق الكلب معدات كهربية أو أسلاك أو مواد كيمائية كمسحوق الغسيل مثلا أو سائل تنظيف البلاط أو الأوانى ، وأحرص على غلق الدواليب جيدا ، تخلص هذه الأيام من نباتات الزينة ـ ثم كمن تذكر شيئا ـ أنت ليس عندك نباتات زينة ، باختصار تخلص من كل ماقد يؤذى الكلب حتى يألف المكان .

كانت سعيدة قد اقتربت منا وقالت وهى تشير إلى الكلب الوولف :

ـ هذا الكلب شكله طيب .

نظر إليها حسن وقال :

ـ هو أيضا ينظر إليك .

نزلت سعيدة على ركبتها لتكون قريبة من الكلب الصغير ، راحت تهدهده على رأسه ، تمشى بيدها على جسمه ، تصدر أصواتا لطيفة من فمها ، ثم مدت يدها وأمسكت بالطوق وطلبت منى أن أتركه لها قليلا

فتركته . اندفع الكلب ليجرى لكنها كانت تمسك بالحزام الجلدى بقوة فاندفعت خلفه ، نبح مرتين وجرى وهى خلفه وابنها يضحك ، راحت تدور به ويدور بها فى الحديقة ويهتز ردفاها ونهداها يرتعشان ، السائقون يتابعون المشهد والجالسون متفرقون على المقاعد وبائعة الحلوى التى لم يظهر زوجها بعد .

كانت الساعة حوالى الثالثة ، الشمس لا تزال قوية ، اليوم كله كان مشمسا دافئا ، بانت لى خضرة الحديقة زاهية وفجأة حدث هرج فى الميدان ، رأينا سيارة بوكس تجرى وخلفها عدد كبير من الشباب والرجال الحفاة لم يلحقوا بها فصرخت أم سعيدة .

ـ جماعة العقيد عباس ، شافوه ، شافوه يا سعيدة وجروا وراءه .

نظر إلىّ حسن فى دهشة وقال :

ـ القصة حقيقية إذن !

وقفنا نتفرج على المشهد فى الميدان الذى توقف كل من فيه يتفرجون . رأيت العربة تختفى فى الشارع ، والذين كانوا يجرون وراءها يعودون ثم يتفرقون ، قال حسن :

ـ هل سيأتون هنا ؟

قالت أم سعيدة .

ـ لا . سيختفون ، لا أحد يعرف أين يذهبون ولا كيف يتجمعون

فجأة، قد يأتى واحد أو اتنين لا أكثر، ثم هتفت فى احتجاج ، العقيد عباس لازم يترك الخدمة، هذا أحسن حل.

ضحكنا. سمعها السائقون أيضا فضحكوا، ضحك بعض الجالسين فى كسل على مقاعد الحديقة.

عادت سعيدة وناولتنى طوق الكلب، ثم طلبت أن تجرب الجرى بكلب حسن، جرى بها الكلب بسرعة أكبر من الوولف فتوقفت وتشبثت بقدميها فى الأرض وبيديها فى حزام الطوق وعادت إلى حسن وقالت:

ـ هذا كلب صعب.

تناول منها الحزام وقال لى:

ـ هذا هو الذى يجب أن يقتل فورا إذا بلغ الخمس سنوات.

جذب الكلب جواره ونهره صارخا، اسكت، نظر إليه الكلب بحدة فمد يده بحرص ومشى بها على رأسه وظهره ببطء ثم ضحك وقال:

ـ تخيلت العقيد عباس مربوط فى طوق يجرى أمام المجانين الذين يمسكون جميعا به

ضحكنا بقوة.

❊ ❊ ❊

طال بنا الصمت، خفت فى لحظة أن ينسى كل منا الآخر ويتركه. ظهر لى أن بالحديقة أشجارًا أخرى غير الفيكس، أشجار الأكاسيا والبوتسيانا، بانت لى الحديقة اجمل مما هى فى كل مرة، بل واسعه يمكن أن أكتشف الكثير من أشجارها الزهرية إذا مشيت فيها بعض الوقت، سالت نفسى لماذا حقاً ندخل من الباب فنجلس على أقرب مقعد مباشرة فتبدو الحديقة ضيقة وصغيرة. لايمكن أن يكون السبب قرب بائعة الشاى من الباب فهى تستطيع أن تأتى إلينا فى أى مكان.

فى اللحظة التى كدت أعود فيها إلى الكلام مع حسن اقترب منا رجل لم أره وهو يدخل إلى الحديقة، وقف أمامنا فجأة طويلا عريضا يرتدى جلبابا بلديا وعلى رأسه لبدة وقال مباشرة:

ـ ألا تريدان رجلا يعمل بوابا فى العمارة عندكما، أو حتى بنت صغيرة تعمل خادمة.

كانت فى عينى الرجل حدة، وشىء من الانكسار معا، كان السؤال مباغتا لنا حقا، ابتعدت سعيدة توصل طلبات السائقين، انشغلت أمها بالولد الأسود، قبل أن أعتذر للرجل الذى حجب الميدان عنا قال له حسن:

ـ تبحث عن عمل..؟

ـ أجل.

تفحصه حسن بعينيه، بدا يتأمل قوته ثم قال ضاحكا.

ـ أنت شكلك كده شيخ منسر . .

ارتبك الرجل لكن حسن قال بسرعة :

ـ شكلك كنت شقى وإنت صغير . صح . ؟

ابتسم الرجل ولابد أنه أحس بالاطمئنان فجلس على الأرض أمامنا وقال :

ـ إذا لم تستعملونى أو تستعملوا بنتى اسقونى شاى الله يستركم .

قلت لأم سعيدة أن تأتى بكوب شاى ، هتف الرجل قائلا لها :

ـ خمس معالق سكر الله يخليكى . .

كان واضحا أنه جائع ، أخرج من صداره تحت الجلباب محفظة صغيرة أخرج منها بطاقته الشخصية قدمها لحسن الذى قرأ اسمه محمد على . . أبو . . توقف لحظة فقال الرجل «أبو صفيحة» ، ضحك حسن وضحكت أنا ، قال حسن :

ـ أول مرة أسمع هذا الاسم ، أنت فلاح؟

قال الرجل :

ـ أجل .

أتت أم سعيدة بكوب الشاى فتناولها الرجل ، أخذ يحتسى منها ويصدر صوتا عاليا ، بدا كأنه يأكل الشاى ، قال حسن :

ـ لماذا لا تعمل؟ صحتك ما شاء الله .

ـ هل وجدت عملا ولم أعمل ، أنا يطلع الصباح أدور أبحث عن عمل ، أعود بمايجود به أولاد الحلال ولا أجد عملا أبدا ، لماذا لا أجد عملا ، لا أعرف؟ هذا والله ظلم .

أخذ يبكى ونحن فى غاية الدهشة ، فى الحقيقة تأثرت جدا من بكائه ، ارتبك حسن وبدا يبحث عن كلام مناسب يهون به على الرجل فقال :

ـ لا تحزن يا أبو صفيحة ، خلق الإنسان فى كبد .

قال أبو صفيحة :

ـ يعنى إيه؟ .

قال حسن :

ـ يعنى تعب .

ـ من الذى قال ذلك؟

ـ ربنا يا أبو صفيحة

فكر أبو صفيحة لحظة . بدا متحيرا ثم قال بصوت خافت متردد كأنه يكلم نفسه :

ـ طيب ليه بس كده!

لم نستطع إلا أن نضحك قبل أن يقول حسن:

ـ هذه حكمة، لو كانت الحياة سهلة لأصبحت ماسخة، التعب ميزة تماما مثل الفرح يا أبو صفيحة، أستغفر الله.

ـ الحمد لله على كل شيء..

قال أبو صفيحة ذلك فى استسلام، وعاد يشرب الشاى باستمتاع الجائع الذى يأكل، ثم راح ينظر إلى الكلب الدوبر مان بعمق، لاحظت أن الكلب أيضا ينظر إليه، قال حسن:

ـ لا أنا ولا صاحبى نملك عمارة، ولسنا فى حاجة إلى خادمة و..

قاطعه أبو صفيحة قائلا:

ـ هذا الكلب يبدو شرسا جدا يا أستاذ، يحتاج قوة فى التربية.

قال حسن وهو ينظر إلى بعيد كأنه يفكر بعمق.

ـ لماذا لا تذهب إلى سوق الكلاب تشترى كلبين وتربيهما ثم تبيعهما وتشترى ثلاثة أو أربعة وتربيها وتبيعها وتشترى أكثر وتصبح تاجرا..

نظر أبو صفيحة مبتسما إلى حسن ثم إلىّ، بدا مندهشا لحظة من الفكرة ثم قال بحماس كمن وجد حلا:

ـ تساعدانى، ساعدانى بأى مبلغ، وأنا والله العظيم أفعل هذا. ساعتها أبيع لكما أى كلب بنصف الثمن.

رحت أضحك من أفكار حسن العجيبة التى صدقها الرجل بسرعة.
قال حسن بصوت خفيض:

ـ طيب لو أتينا ولم تنفذ ما تقول ماذا يكون الحكم؟

هتف أبو صفيحة:

ـ اضربنى بجذمتك.

انحنى فجأة على جذمتى أنا، أنا وليس حسن، يحاول تقبيلها فجذبت قدمى بعيدا وأمسكته من كتفه أحاول إبعاده، فوقف وقال:

ـ اعطونى أى مبلغ أبدأ به هذه التجارة، سوف ترون أن أبو صفيحة لا يكذب أبدا.

سكت حسن لحظة ثم قال:

ـ لا. سنعطيك الكلب.

هتف الرجل سعيدا.

ـ يبقى كثر الله خيرك.

انحنى مرة أخرى لكن على يد حسن يحاول تقبيلها، فجذبها حسن وأبعده بيده اليسرى، لدهشتى قدم له طوق الكلب قائلا:

ـ تفضل.

ثم نظر إلىّ ضاحكا وقال:

ـ بعد خمس سنوات يمكن أن يأكله الكلب .

ضحكت وأنا بعد لم أنتبه من دهشتى مما فعل لكن حسن قال :

ـ كلب واحد لن يقيم تجارة رابحة ، خذ هذا أيضا ، كلب وولف معتبر .

مد يده أمسك الطوق من يدى فتركته له مسلوب الإرادة غير مصدق .

أعطى أبو صفيحة طوق الكلب الآخر ، زاد على ذلك أن نفحه عشرة جنيهات وقال :

ـ اشتر بها أكلا للكلبين .

وقف أبو صفيحة مذهولا ، كذلك كانت أم سعيدة وسعيدة ، حتى الطفل الأسود وقف ينظر إلينا ضاحكا ، رأيت عيون السائقين كلها تتجه إلينا . تساءل أبو صفيحة :

ـ بكم اشتريتموهما؟

قال حسن :

ـ بخمسمائة جنيه .

هتف أبو صفيحة :

ـ يا قوة النبى ، بعد شهر سأبيعهما بألف جنيه ، سأطعمهما أحسن طعام ، وأربيهما أحسن تربية ، بعد سته أشهر سأحضر هنا أقابلكما وآخذكما إلى بيتى وتختارا أحسن كلبين عندى ببلاش .

انحنى يقبل رأس حسن ثم رأسى ، فعل ذلك بسرعة فلم نستطع تفاديه ، ثم اندفع الكلبان أمامه وهو يمسك بطوقيهما وراح يجرى خلفهما والسائقون يضحكون .

عقدت الدهشة لسان أم سعيدة ، وسعيدة التى وقفت تتابع المشهد مبتسمة فى طفولية عذبة ، قال حسن :

ـ أفضل من الانتظار خمس سنوات ثم نقتل كلبا .

لم أجد شيئا أقوله ، ضحكت ، ضحكت بقوة وضحك حسن معى ورحنا نهتز من الضحك ، وقف حسن فوقفت ، قال :

ـ سيأتى إلى هنا بعد ستة أشهر ، أنا متأكد ـ ثم ابتسم ـ هذا طبعا إذا عاش حتى هذا اليوم .

قلت :

ـ هذا يعنى أن نأتى إلى هنا أيضا بعد ستة أشهر .

قال :

ـ سنأتى كل يوم

ومشينا ، الميدان الذى بدا أن الشمس تقف فوقه لا تريد المغيب صار متألقا بالضوء الحنون . قطعناه على مهل ، لم ألاحظ وجود كمين الشرطة ، ولا زحام الناس التى تقف على الرصيف ، مشيت ذاهلا جوار حسن الذى بدا مستمتعا بما فعل لدرجة أنسته أنه يمشى معى .

فكرت فجأة أننا على قدر تحمسنا لأى شىء لا نكمله أو لا يكتمل، قبل أن أسأله عن سر ذلك قال:

ـ الوقوف على عتبات البهجة دائما أفضل من البهجة نفسها..

أجل، البهجة أمر سهل، لكن إذا طمعت فيها قتلتك وأهلكتك.

لم أقتنع بكلامه، لكنى كالعادة، صدقته.. ومشينا صامتين..

... انتهت...

القاهرة ـ إمبابة

٢٠٠٥م

سيرة الكاتب

الاســـــم: إبراهيم عبد المجيد

تاريخ الميــلاد: ٢ / ١٢ / ١٩٤٦

محـل الميــلاد: الإسكندرية

المؤهل العلمى:

ـ ليسانس الآداب قسم الفلسفة من جامعة الإسكندرية

العنـــــوان: ١٢ شارع الميثاق ـ أرض الجمعية ـ إمبابة

التـليـفــــون: ٣١٢٣٦٤٢ ـ ٠١٠٥٤٥٠٦٧١

الأعمال السابقة:

ـ رئيس تحرير سلسلة كتابات جديدة ١٩٩٥ ـ ٢٠٠٠

ـ مدير إدارة الثقافة العامة ـ الثقافة الجماهيرية ١٩٩٠ ـ ١٩٩٥

ـ إدارة النشر هيئة الكتاب ١٩٨٥ ـ ١٩٩٠

ـ إدارة المسرح الثقافة الجماهيرية ١٩٨٢ ـ ١٩٨٥

ـ إخصائى ثقافى الثقافة الجماهيرية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢

المؤلفات:

أولا: الروايات

١ ـ برج العذراء	دار الآداب	٢٠٠٣ بيروت
٢ ـ طيور العنبر	دار الهلال	٢٠٠٠ القاهرة طبعة أولى
	مكتبة الأسرة	٢٠٠٢ طبعة ثانية
٣ ـ لا أحد ينام فى الإسكندرية	دار الهلال	١٩٩٦ طبعة أولى
	دار الهلال	١٩٩٧ طبعة ثانية
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة ثالثة
	مكتبة الأسرة	٢٠٠٠ طبعة رابعة
	دار الجمل	٢٠٠٠ بيروت طبعة خامسة
	دار الشروق	٢٠٠٤ طبعة سادسة
٤ ـ قناديل البحر	دار سعاد الصباح	١٩٩٢ طبعة أولى
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة ثانية
	مكتبة الأسرة	١٩٩٨ طبعة ثالثة
٥ ـ البلدة الأخرى	دار رياض الريس	١٩٩٠ طبعة أولى
	المركز العربى للإعلام	١٩٩٥ طبعة ثانية
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة ثالثة
	دار الشروق	٢٠٠٤ طبعة رابعة
٦ ـ بيت الياسمين	دار الفكر العربى	١٩٨٦ طبعة أولى
	دار المستقبل	١٩٩٢ طبعة ثانية
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة ثالثة
	مكتبة الأسرة	١٩٩٩ طبعة رابعة
٧ ـ الصياد واليمام	مجلة الكرمل	١٩٨٤ قبرص طبعة أولى

	دار المستقبل العربى	١٩٨٥ طبعة ثانية
	وزارة الثقافة ـ بغداد	١٩٨٨ طبعة ثالثة
	هيئة الكتاب	١٩٩٣ طبعة رابعة
	مكتبة الأسرة	١٩٩٦ طبعة خامسة
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة سادسة
٨ ـ المسافات	دار المستقبل العربى	١٩٨٣ طبعة أولى
	وزارة الثقافة ـ بغداد	١٩٨٩ طبعة ثانية
	هيئة الكتاب	١٩٩٣ طبعة ثالثة
	مكتبة الأسرة	١٩٩٦ (مع الصياد واليمام) طبعة رابعة
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة خاصة
٩ ـ ليلة العشق والدم	مطبوعات القاهرة	١٩٨٢ طبعة أولى
	دار الحضارة	١٩٩٧ طبعة ثانية
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨ طبعة ثالثة
١٠ ـ فى الصيف السابع والستين	دار الثقافة الجديدة	١٩٧٩ طبعة أولى
	هيئة الكتاب	١٩٨٥ طبعة ثانية

ملحوظة

(الكتب التى طبعت بمكتبة مدبولى كلها طبعت فى عام واحد وضمها مجلدان بعنوان «الأعمال الكاملة»، وهناك طبعة جديدة من أعمال الكاتب ستصدر تباعا من دار الشروق.

ثانيا: المجموعة القصصية

١ ـ مشاهد صغيرة حول سور كبير	وزارة الثقافة	١٩٨٢	طبعة أولى
	هيئة الكتاب	١٩٩٤	طبعة ثانية
٢ ـ الشجرة والعصافير	هيئة الكتاب مختارات فصول	١٩٨٥	طبعة أولى
	مكتبة الأسرة	١٩٩٧	طبعة ثانية
٣ ـ إغلاق النوافذ	هيئة الكتاب مختارات فصول	١٩٩٢	
٤ ـ فضاءات	سلسلة أصوات الثقافة الجماهيرية	١٩٩٢	طبعة أولى
	مكتبة مدبولى	١٩٩٨	طبعة ثانية
	مكتبة الأسرة	٢٠٠١	طبعة ثالثة
٥ ـ سفن قديمة	دار ميريت للنشر	٢٠٠١	
٦ ـ ليلة انجيلا	مكتبة الأسرة	٢٠٠٣	

ثالثا: كتب متنوعة

١ ـ مذكرات عبد أميركى ترجمه عن الإنجليزية سلسلة ذاكرة الشعوب ١٩٨٨ بيروت .

٢ ـ ٢٤ ساعة قبل الحرب مسرحية المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ .

٣ ـ أين تذهب طيور المحيط أدب رحلات ٢٠٠٣ أبو ظبى المجمع الثقافى .

٤ ـ غواية الإسكندرية ٢٠٠٥ مكتبة الأسرة تأملات وأفكار .

الجوائز

١ ـ جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٦ عن رواية البلدة الأخرى .

٢ ـ جائزة أحسن رواية عام ١٩٩٦ فى معرض الكتاب عن رواية لا أحد ينام فى الإسكندرية .

٣ ـ جائزة الدولة للتفوق فى الآداب عام ٢٠٠٤ .

الترجمات إلى لغات أجنبية

١ ــ البلدة الأخرى

ـ إلى الفرنسية دار آكت سود ١٩٩٤ ترجمة كاترين تسيبيه توماس .

ـ إلى الإنجليزية عام ١٩٩٧ ـ قسم النشر بالجامعة الأمريكية ـ ترجمة فاروق عبد الوهاب .

ـ إلى الألمانية دار آرابش بوش عام ٢٠٠٠ ترجمة منى نجار .

٢ ــ لا أحد ينام فى الإسكندرية

ـ إلى الفرنسية عام ٢٠٠١ دار ديكليه دى بروبير ـ ترجمة سهير فهمى .

ـ إلى الإنجليزية عام ١٩٩٩ ـ قسم النشر بالجامعة الأمريكية .

٣ ــ بيت الياسمين

ـ إلى الفرنسية عام ٢٠٠٠ دار نشر آكت سود ترجمة نشوى الأزهرى

٤ ــ طيور العنبر

ـ إلى الإنجليزية عام ٢٠٠٥ ـ قسم النشر بالجامعة الأمريكية ترجمة فاروق عبد الوهاب .

عتبات البهجة

على الرصيف قابلنا بشرا سعداء، أفواجا من البشر يأتون فى اتجاه الحديقة، نساء جميلات، وبنات مضيئات، ورجالا أقوياء، وأطفالا مرحين، الكل يحمل زهورا فى يده، من النوافذ كانت تأتى إلينا رغم اتساع الشارع ضحكات مبتهجة، وموسيقى راقصة، حتى إذا وصلنا إلى قسم البوليس لم نلحظ وجوده، وجدت نفسى أسرع على إيقاع هذه البهجة المنسكبة حولى، وأسرع حسن معى، شيئا فشيئا راحت الأنوار تتراجع، الناس تقل، أصوات الموسيقى تخفت، ثم اختفى كل شىء، لم يعد ثمة شىء أو أحد غيرى أنا وحسن نقترب من مكان الافتراق، رأيته يرتعش مثل طفل سعيد ويقول شاردا:

ـ أنا متأكد إن أمينة ستسمع صوت وقع قدمى على السلم الليلة وستفتح لى الباب قبل أن أدق الجرس....

أبطال هذه الرواية الجديدة لإبراهيم عبد المجيد بسطاء في مشاعرهم، أبرياء في استقبال العالم حولهم، وحيدون يلوذون ببعضهم، ينتصرون على القسوة التي تحاصرهم بالدهشة الدائمة التي تتجلى في أكثر من أسلوب من السخرية، إلى روح الدعابة إلى القلق إلى الوداعة والرضا. مجسدة لمحفل جميل تختلف فيه طرق الناس للانتصار على الوقت بالاستمرار فيه أو الخروج منه. إنها رواية عن حيرة الإنسان في العالم، رغم ما ينسكب منها من فكاهة أو مرح..

6 221102 015066

دار الشروق
www.shorouk.com